فتح المنان في شرح
منظومة آداب قارئ القرآن

محمد بن أحمد رفيق

www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فتح المنان

في شرح منظومة آداب

قارئ القرآن

تأليف

محمد بن أحمد رفيق

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الفهرس

مقدمة	5
منظومة الآداب الباطنية لقارئ القرآن	7
تمهيد	9
ترجمة موجزة عن الإمام الغزالي رحمه الله	18
إليك أخي القارئ وأخي إمام المصلين	21
نفاق القراء	26
آفة القراء العجب والرياء	30
آداب قارئ القرآن	35
الأدب الأول فهم أصل الكلام	37
الأدب الثاني التعظيم	47
الأدب الثالث حضور القلب	52
الأدب الرابع التدبر	58
الأدب الخامس التفهم	64
الأدب السادس موانع الفهم	73
الحجاب الأول تكلف مخارج الحروف	76
الحجاب الثاني تقليد مشاهير القراء	87

الحجاب الثالث الإصرار على الذنوب	109
الحجاب الرابع التعصب لتفسير واحد	113
الأدب السابع التخصيص	120
الأدب الثامن التأثر	123
الأدب التاسع الترقي	130
الأدب العاشر التبرؤ . أو التبري .	133
تعريف الإخلاص	140
مراجع الكتاب	152

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا(70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70، 71]

أما بعد: فقد يسر الله تعالى لي طبع كتابي: «التبيان في شرح منظومة الآداب الباطنية لقارئ القرآن»[1]، وقد كنت عرضته بعد الطبع على بعض الأساتذة والطلبة فاستحسنوه، وأشار علي بعضهم اختصاره دون ذكر شرح المنظومة، والوقوف على ما يتعلق بمفرداتها أو إعرابها مما يفوت على القارئ الالتفات إلى لبّ الموضوع.

---

[1] طبعة دار الكتب العلمية عام 2011

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فأخذت اقتراحهم بعين الاعتبار، واستخرت ربي على هذا الاختصار، راجيا منه القبول على ما فيه من التقصير، إنه ولي ذلك وعلى كل شيء قدير.

وكتبه عُبَيْد ربه، المعترف بذنبه

محمد بن أحمد رفيق

للتواصل مع المؤلف

00212684807156

منظومة الآداب الباطنية لقارئ القرآن

الحمدُ لله الذي قد أن أنزلا ... كتابَهُ مرتَّلاً مُفصَّلا

ثم الصلاة والسلام أبدا ... على النبيّ الهاشميّ أحمدا

يقول راجي عفوِ ربٍّ صَمدِ ... محمدٌ رفيقُ نجلُ أحمدِ

يا من جهرتَ بالقُرَانِ مُظهِرا ... مُحسِّناً عند الأداء مُبْهِرا

هل يا أخي جلا عليك في الخَفا ... أم أنت ممن في خَفائه جَفا؟

فليس كلُّ قارئٍ سيؤجرُ ... ولا نديُّ الصوت دوما يُشكر

فإن مما صحَّ في بعض الأثر ... عن النبي الصادقِ الفضلِ الأَبَرّ

ما أكثرَ القُرّاء ممن نافقوا ... فهُم بِدا الرياء والعُجْبِ شقوا

فهاك مِنّي جملةً من الأدب ... أرجو بها زُلْفاً مِن الذي وهَب

نقلتها من سِفرِ الِاحْيَا ناصحا ... مُهذّباً مُرتّباً مُوضّحَا

نَظَمتُها في عشرةٍ مَن يعتني ... بها يجِدْ ثمارَها لا يَنثني

فَهْمُ كلام الله بالتدبُّرِ ... فيقشعرُّ الجِلدُ مما يَعتري

وعظِّمِ الكريمَ جلّ وعلا ... واجعلْ كلامَه رفيعا في العُلا

وحضِّرِ القلبَ يكنْ شهيدا ... مُدّكرا وعداً كذا الوعيدا

تدبُّرٌ تفكّرٌ في آيهِ ... لا تشتغلْ لا تلتفتْ لغيرهِ

مستفهما لآيهِ مُستوضحا ... لِما خَفِي والشيخَ كن مستفصحا

وحاذرَنْ ما يحجُب الفهمَ وسَلْ ... عن كُنْهِها كيما تحيدَ وتَخلّ

أوّلُها تكلُّفٌ إذا قـرَا ... ثانيهِ تقليدُ الذي قد أبهرا

إصرارُ قارئٍ على الذنوبِ ... يُطفئ عنهُ النورَ في القلوب

لزومُ تفسيرٍ ورأْيٍ واحدِ فليس عنه أبدا بحائدِ

فإن علمتَ هذه الموانعا فدونها أيضا تحلُّ سابعا

بأن ترى كأنكَ المخاطَبُ وأنّكَ المقصودُ والمطالَبُ

والثامنُ اجتنابُ ما قد أوعدا وموقنًا بأنه عَيْنُ الرّدى

والتاسعُ استحضارُ مَن تكلّما كأنما السماعُ منك قد سما

وعاشرُ الآداب إخلاصُ العمل فليس يَبغي غيرَهُ عزَّ وجلّ

فالالتفاتُ مبطلُ الأعمالِ مُصَيِّرُ الأجور للزوالِ

يا ربنا أصلحْ لنا ما قد بَطن وما بدا وما خفي وما علن

بذا يكون نظمنا قد انتهى فاعمل بها أخي وقُلْ أنا لها

ختمتُها والفضلُ لله الأحد مُجري العطايا ليس تُحصى أو تُعَد

مُصلياً مسَلّما على النبيّ محمدٍ وآل بيتِه الصَّفِيّ

أبياتُها «كيٌّ» بِعَدِّ الجُملِ تأريخها «بَلَغْتَ» فاقرأْ وادعُ لي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

تمهيد

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا، كتابا لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلَق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي غرائبه، محفوظا في الصدور، ميسرا على الألسنة، مهيمنا على القلوب، معجزا لفظا ومعنى، من قال به صدق، ومن عمل به اهتدى، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه رشد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أحسن الناس صوتا بالقرآن، وأخشاهم قلبا للرحمن، صلى الله عليه وعلى آله الأطهار، وأصحابه الكرام الأخيار.

أما بعد: فإن من أعظم نعم الله تعالى على خلقه، أن أنزل إلينا قرآنا فيه سعادة من تمسك به، قد يسر سبحانه ذكره للذاكرين، وترتيله للمرتلين، وأمر بتحقيق حروفه وتجويدها، وتحسين الأداء عند النطق بها، فقال . وقوله أصدق قيلا:(**ورتل القرآن ترتيلا**) سورة المزمل : 4، وذلك ليكون عونا على تدبره، وعلى تأثر القلب به.

والناظر في المكتبة الإسلامية يجدها ملئية بكتب قد ألفت في أحكام التجويد، منها المطولات والمختصرات، ومنها المنظومات وشروحاتها، ومنها المجلدات والرسائل.

وكان أول من صنف في علم التجويد، الإمام موسى بن عبيد الله بن خاقان (المتوفى سنة 325 هـ) صاحب القصيدة الخاقانية في علم التجويد، وهي قصيدة

تضم إحدى وخمسين بيتاً في حسن أداء القرآن الكريم . ثم تبعه الإمام أبو عمرو الداني (المتوفى سنة 444 هـ) بكتابه (التحديد في الإتقان والتجويد)، واعتنى أيضا بشرح القصيدة الخاقانية.

ثم رسالة (التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي) لأبي الحسن علي بن جعفر السعيدي المقرئ (المتوفى سنة 461 هـ)، وبعدها كتاب (بيان العيوب التي يجب أن يتجنبها القراء وإيضاح الأدوات التي بني عليها الإقراء) للعلامة الحسن بن أحمد بن البناء (المتوفى سنة 471 هـ). يتناول فيها كيفية الأداء وبيان العادات الذميمة المتعلقة بالهيئات والجوارح، مع توضيح معايب النطق الخاصة ببعض الأصوات، مما يدخل في باب: أمراض الكلام، والأصول الواجب مراعاتها عند القراءة.

وأوسع ما وصلنا في علم التجويد كتاب (الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق التلاوة) للإمام المقرئ أبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي (المتوفى سنة 437 هـ) صاحب التصانيف الجلية في علوم القرآن والعربية.

ثم تتابعت بعد ذلك مؤلفات ورسائل في علم التجويد، كل مؤلف وطريقته. ولعل أبرزها ما وضعه الإمام ابن الجزري رحمه الله (المتوفى سنة 833 هـ) المقرئ المشهور، له كتاب (التمهيد في علم التجويد)، تناول فيه كل مسائل التجويد، وضم إليها باباً في الوقف والابتداء، وآخر في معرفة الظاء وتمييزها من الضاد. وله أرجوزة مشهورة في ثمانية ومائة بيت في أحكام التجويد والرسم والوقف والابتداء، مشهورة بعنوان (المقدمة الجزرية). ولها شروح عدة.

أما ما يجب على القارئ أن يتحلى به من الآداب الباطنية، فقلة قليلة من أهل العلم من خصها بالذكر[1]، منهم الإمام النووي رحمه الله أشار إليها في كتابه: (التبيان في آداب حملة القرآن)[2] ثم اختصره وسماه: (تلخيص التبيان)، وكذلك الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله في الإحياء[3].

وأما أن تؤلَّف في ذلك رسالة خاصة مستقلة، فلم أجدها فيما تيسر لي من بحث. علما أن هذه الآداب هي لب ما يجب أن يهتم به القارئ . خاصة حين يكون إمام مسجد، أو قارئا مشهورا . لأنها تمثل: **الإخلاص الذي هو روح العمل**.

والقراء اليوم . وفي مقدمتهم أئمة المساجد .كثير ممن منَّ الله تعالى عليهم بإتقان تجويده، والإبداع في آدائه وترتيله، قد غفلوا عن خطورة الإمامة به، فاهتموا بمظاهر أصواتهم، وثناء الناس على حسن آدائهم، فإن سمعوا مدحا انتفشوا، وإن سمعوا ذما تكلفوا، ففُتنوا بالثناء، وفَتنوا بالأداء، حتى لُقبوا بالنجوم في مجلات وجرائد، وصار المغرمون يهرعون باحثين عنهم في المساجد، وبدت ظاهرة من العجائب، إذ أخذ القراء في: «التقليد والمحاكاة على سبيل الإعجاب والتلذذ، وتلقنه الطلاب وهم بعدُ في دَوْر التلقي، ثم سرَت هذه العادة فَتَكَوَّن منها ظاهرة المحاكاة والتقليد في الصوت، كل بحسب من أعجبه صوته، فعمروا المحاريب بالتقليد، وهم وقوف بين

---

[1] أتكلم هنا عن الآداب الباطنية لقارئ القرآن،لا عن فضائل القرآن، أو آداب حملة القرآن، أو قرائه.

[2] التبيان في آداب حملة القرآن، انظر من (ص: 82 إلى 91)

[3] إحياء علوم الدين (1/ 280)

يدي الله تعالى، يؤمون المصلين، ليحرك الإمام نفوس المأمومين بصوت غيره، ويتلذذ السامعون بِحُسن أدائه فيه، بل وصل الحال إلى أن الإمام في التراويح، قد يقلد صوتين، أو ثلاثة،..»[1].

فإذا كانت قلوب بعض حفظة القرآن قد افتُتنت بأصواتهم، فماذا تركوا للمفتونة قلوبهم بالأغاني؟ وكما قال مسروق بن الأجدع رحمه الله:

يا معشر القراء يا ملح البلد من يصلح الملح إذا الملح فسد؟[2]

وهذه فتنة تزداد عاما بعد عام، خاصة في ظل انتشار القنوات الفضائية. وتكثر كلما حل شهر رمضان. وهذا يذكرني بحديث النبي صلى الله عليه وسلم. وهو من أعلام النبوة .: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا: إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ، وَكَثْرَةُ الشُّرَطِ، وَبَيْعُ الْحُكْمِ، واستِخْفَافٌ بِالدَّمِ، وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ، وَنَشْوٌ يَتَّخِذُونَ الْقُرْآنَ مَزَامِيرَ، يُقَدِّمُونَ أَحَدَهُمْ لِيُغَنِّيَهُمْ وَإِنْ كَانَ أَقَلَّهُمْ فِقْهًا». «. وفي رواية لابن أبي عاصم بلفظ: «والرجل يقرأ القرآن مزامير يغني به القوم»[3].

قال الإمام الشوكاني رحمه الله: «ونشوا يتخذون القرآن» أي قراءته «مزامير» جمع مزمار، وهو بكسر الميم: آلة الزمر يتغنون به، ويتشدقون، ويأتون به بنغمات مطربة، وقد كثر ذلك في هذا الزمان، وانتهى الأمر إلى التباهي بإخراج ألفاظ

---

[1] مستفاد من كتاب بدع القراء للشيخ بكر أبي زيد رحمه الله، ص:16

[2] تاريخ الإسلام لشمس الدين الذهبي(8/ 206)

[3] رواه الطبراني في الكبير وأحمد وابن أبي شيبة وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني والحاكم في مستدركه وغيرهم وحسنه الألباني في الجامع الصغير (5/ 494)

القرآن عن وضعها «يقدمون» يعني الناس الذين هم أهل ذلك الزمان «أحدهم ليغنيهم» بالقرآن بحيث يخرجون الحروف عن أوضاعها ويزيدون وينقصون لأجل موافاة الألحان وتوفر النغمات «وإن كان» أي المقدم «أقلهم فقها» إذ ليس غرضهم إلا الالتذاذ والإسماع، بتلك الألحان والأوضاع»[1].

قلت: فكيف لو رأى الإمام الشوكاني رحمه الله فتنة القراء في عصرنا؟!

واعلم ـ رحمك الله ـ أن فتنة القراء ليست حديثة العهد، وإنما ظهرت منذ قديم الزمان، فهذا الإمام مالك رحمه الله المتوفى سنة 179هـ، سئل عن القراءة بالألحان، فقال: «ما يعجبني، لأن ذلك يشبه الغناء ويضحك بالقرآن، ويُسمّى، ويقال فلان أحسن قراءة من فلان. ولقد بلغني أن الجواري قد علمن ذلك كما يعلمن الغناء. ولا أحب ذلك على حال من الأحوال في رمضان ولا في غيره، أين القراءة التي يقرأ هؤلاء من القراءة التي كان يقرؤها رسول الله – صلى الله عليه وسلم؟»[2].

وهذا الحافظ الذهبي رحمه الله المتوفى سنة 748 هـ يقول: «فالقرَّاء المجَوِّدة: فيهم تنطع وتحرير زائد، يؤدِّي إلى أن المجود القارئ يبقى مصروف الهمة إلى مراعاة الحروف، والتنطع في تجويدها، بحيث يشغله ذلك عن تدبر معاني كتاب الله تعالى، ويصرفه عن الخشوع في التلاوة، ويخليه قوي النفس مزدرياً بحفاظ كتاب الله تعالى، فينظر إليهم بعين المقت، وبأن المسلمين يلحنون، وبأن القراء لا يحفظون إلا شواذ

---

[1] فيض القدير (3/ 253 ـ 254)، وردت: نشو بالضم عطفا على إمارة، ونشوا بالنصب بدل، لأن سياق الحديث: ولكني أبادر ستا...إلخ.

[2] البيان والتحصيل (18/ 325) لأبي الوليد ابن رشد القرطبي (المتوفى : 450هـ)

القراءة، فليت شعري أنت ماذا عرفت وماذا عملت؟! فأما عملك فغير صالح، وأما تلاوتك فثقيلة عرية من الخشية والحزن والخوف، فالله تعالى يوفقك ويبصرك رشدك ويوقظك من مرقدة الجهل والرياء.

وضدهم قراء النغم والتمطيط، وهؤلاء من قرأ منهم بقلب وخوف قد يُنتفع به في الجملة، فقد رأيت منهم من يقرأ صحيحاً ويطرب ويبكي، ورأيت منهم من إذا قرأ قسَّى القلوب، وأبرم النفوس، وبدّل الكلام، وأسوأهم حالاً الجنائزية[1].

وأما القراءة بالروايات وبالجمع فأبعد شيء عن الخشوع، وأقدم شيء على التلاوة بما يخرج من القصد، وشعارهم في تكثير وجوه حمزة وتغليظ تلك اللامات وترقيق الراءات . اقرأ يا رجل وأعفنا من التغليظ والترقيق وفرط الإمالة والمدود ووقوف حمزة، فإلى كم هذا؟! وآخر منهم إن حضر في ختم، أو تلا في محراب، جعل ديدنه إحضار غرائب الوجوه والسكت والتهوع بالتسهيل، وأتى بكل خلاف، ونادى على نفسه: «أنا فلان، اعرفوني فإني عارف بالسبع». إيش نعمل بك؟ لا صبحك الله بخير، إنك حجر منجنيق، ورصاص على الأفئدة». انتهى كلامه رحمه الله[2].

والقصد: أن فتنة القراء شيء معلوم ومشهور، ذاع صيته عبر العصور، فهل غاب عن هؤلاء القراء أن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصا لوجهه، أم لم يغب؟

---

[1] لعلهم الذين يقرأون في الجنائز أي المآتم، فهذه الظاهرة مشهورة إلى يومنا هذا.

[2] بيان زغل العلم والطلب . ص / 4، 5 عن طبعة المقدسي

وهل غاب عن هؤلاء القراء أن أول من تسعر بهم النار يوم القيامة رجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، ليقال عالم، وليقال: هو قارئ، فيسحب على وجهه حتى يلقى في النار. أم لم يغب[1]؟

وهل غاب عن هؤلاء القراء قوله صلى الله عليه وسلم: «اتقوا هذه المذابح»؟[2]. قال الشوكاني رحمه الله: «أي تجنبوا تحري صدور المجالس يعني التنافس فيها»[3]. أم لم يغب؟

ولما كان من حق المسلم على أخيه المسلم أن ينصح له، رأيت بُدا أن أقدم لأخوتي . أئمة المساجد، ولمن اشتهر بالقراءة، وذاع صيته على التلفاز، والمذياع، والأقراص الضوئية . هذا المختصر الوجيز من كتابي « التبيان في شرح الآداب الباطنية لقارئ القرآن ». وقد سميته: « فتح المنان في اختصار آداب قارئ القرآن ». ومادته مستفادة من كتاب: « إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي رحمه الله.[4]

ولا أظن إماما لمسجد، أو قارئا ما، يأنف من هذه النصيحة، فإنه إما أن يكون على علم بهذه الآداب، فتكون حينئذ ذكرى له . والذكرى تنفع المؤمنين .، وإما أن يكون غافلا عنها، فتكون حينئذ إيقاظا له من نوم غفلته، وإنقاذا له من الغرق في بحر شهوته، وفتنة شهرته.

---

[1] الحديث رواه مسلم وسيأتي ذكره في الكتاب إن شاء الله.

[2] رواه الطبراني والبيهقي من حديث ابن عمرو رضي الله عنه، صححه ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع الصغير (1/ 120). «المذابح يعني المحاريب».

[3] فيض القدير (1/ 187)

[4] المجلد الأول من صفحة 280 إلى 288

والله أسأل، أن يوفق أئمة المساجد وقُرَّاءها لما يحبه ويرضاه، ويجعل قراءتهم خالصة لوجهه الكريم، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

وهذا أوان الشروع في المقصود، بتوفيق الكريم الودود، به في كل شيء يستعان وعليه وحده التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ترجمة موجزة عن الإمام الغزالي رحمه الله

لما كانت مادة الكتاب مستفادة من كتاب « إحياء علوم الدين «، أحببت أن أذكر ترجمة موجزة عن المؤلف رحمه الله، حتى يكون القارئ على بينة منه، فأقول وبالله التوفيق:

«كتاب إحياء علوم الدين كتاب مشهور عند عامة طلبة العلم. ومؤلفه الشيخ، الإمام، البحر، حجة الإسلام، أعجوبة الزمان، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، الشافعي، الغزالي، (450 - 505 هـ) (1058 - 1111 م)، صاحب التصانيف، والذكاء المفرط. ألف كتاب (الإحياء)، وكتاب (الأربعين)، وكتاب (القسطاس)، وكتاب (محك النظر).

وصنف:(البسيط) و(الوسيط) و(الوجيز) و(الخلاصة) و(المستصفى) في أصول الفقه، و(المنخول) و(اللباب) و(المنتحل في الجدل) و(تهافت الفلاسفة).. وغير ذلك.

وأما كتابه الإحياء، فقد تضاربت أقوال العلماء فيه، بين إفراط وتفريط، والقول الوسط ما قاله الإمام الذهبي رحمه الله في السير: « قلت:أما (الإحياء) ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير لولا ما فيه من آداب ورسوم وزهد من طرائق الحكماء ومنحرفي الصوفية، نسأل الله علما نافعا،..إلخ.

وقال في ختام ترجمته: « فرحم الله الإمام أبا حامد، فأين مثله في علومه وفضائله؟ ولكن لا ندعي عصمته من الغلط والخطأ، ولا تقليده في الأصول»[1] .

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عنه فكان من جوابه: « وأما ما في (الإحياء) من الكلام في «المهلكات « مثل الكلام على الكبر والعجب والرياء والحسد ونحو ذلك فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي في الرعاية، ومنه ما هو مقبول، ومنه ما هو مردود، ومنه ما هو متنازع فيه . و»الإحياء « فيه فوائد كثيرة ؛ لكن فيه مواد مذمومة، فإنه فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد فإذا ذكر معارف الصوفية كان بمنزلة من أخذ عدوا للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين . وقد أنكر أئمة الدين على « أبي حامد « هذا في كتبه . وقالوا: مرضه « الشفاء « يعني شفاء ابن سينا في الفلسفة . وفيه أحاديث وآثار ضعيفة ؛ بل موضوعة كثيرة . وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم . وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة، ومن غير ذلك من العبادات والأدب ما هو موافق للكتاب والسنة ما هو أكثر مما يرد منه فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه «[2].

قلت: وهذه الآداب الباطنية لقارئ القرآن المنقولة من الإحياء، هي . ولله الحمد . مما توافق ما جاء في الكتاب والسنة، فلا بأس من الاستفادة منه في ذلك.

---

[1] انظر ما جاء في سير أعلام النبلاء (19/ 322) و (19/ 339 340) إلى (19/ 346)

[2] مجموع الفتاوى (10/ 551 552)

وهذه الآداب العشرة هي: فهم أصل الكلام، والتعظيم، وحضور القلب، والتدبر، والتفهم، والتخلي عن حجب الفهم، والتخصيص، والتأثر، والترقي، والتبري.

إليك أخي القارئ وأخي إمام المصلين

يا من أجدت ترتيل القرآن، قد وهبك الله تعالى صوتا حسنا نديا، رخيما شجيا، فإن الأصوات الحسنة هبة من الله تعالى، والهبة عَطِيَّة خاليةُ عن الأَعْواضِ والأَغْراضِ، فهي إذا نعمة من الوهاب جل في علاه، وهبها لمن يشاء من عباده. وقد جاء عن الزهري، وابن جُرَيْج في قوله: (يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ) (فاطر: 1) يعني: الصوت الحسن. رواه البخاري في كتابه: خلق أفعال العباد[1]، وابن أبي حاتم في تفسيره[2].

وقرئ في الشاذ: «يَزِيدُ في الحلق»، بالحاء المهملة، والله أعلم. ذكره الإمام ابن كثير رحمه الله.[3]

وقد أحسنتَ المظهرَ، حيث جمّلتَ ظاهرك وأحسنته، سواء في ذلك مظهر اللباس، أو مظهر الجلسة، أو مظهر الوقار، أو مظهر التأثر الظاهر للناس، أو مظهر حسن الصوت والأداء، حيث أظهرت تحقيق الحروف، والتزمت بمعرفة الابتداء والوقوف، وظهرَ ذلك من خلال فصاحتك وحسن منطقك.

فهل طهرتَ يا أخي مخبرك؟ وأعني بذلك باطنك، وتطهيره أعني به: مما يدنسه ويفسده، وهو نيتك أيها القارئ. وهذا هو لب وقطب رحى هذه الكتاب، إذ مدار قبول الأعمال: النية الخالصة بعد متابعة الكتاب والسنة، ففي الحديث

---

[1] خلق أفعال العباد (ص: 111)

[2] تفسير ابن أبي حاتم (10/ 3170)

[3] تفسير ابن كثير (6/ 532)

الصحيح: « يا أيها الناس، إنما الأعمال بالنية، وإنما لامرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن هاجر إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه «[1].

إن أصل قبول القراءة، ونيل الأجر والثواب، ليس هو تحقيق الألفاظ الظاهرة، والالتفات إلى حسن الأداء والنبرة الباهرة، والبحة المزمارية، والحنجرة الذهبية. وإنما هو: إخلاص النية لرب البرية.

فقبول القراءة عند الله تعالى ليس متوقفا على تجويد الحروف، ومعرفة الابتداء والوقوف، أو على إعجاب الناس ومدحهم.

كذلك ليست العبرة في كون القارئ له صوت رخيم فيُشكر عليه، أي: فيقابل بشكر الله تعالى له لقراءته. والدليل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: « أكثر منافقي أمتي قراؤها « . رواه الإمام أحمد بسنده من طريق مُحَمَّد بْن هُدَيَّةَ الصَّدَفِيِّ قَالَ سَمِعْتُ عَبْدَ الله بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَكْثَرَ مُنَافِقِي أُمَّتِي قُرَّاؤُهَا»[2].

والقُرَّاءُ: من القِراءة جمع قارئٍ، وهو من اشتهر بقراءة القرآن، وبحفظه والتصدي لتعليمه، وهذا اللفظ ـ القُراء ـ كان في عرف السلف أيضا لمن تفقه في

---

[1] متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. واللفظ للبخاري.

[2] وروي أيضا من طريق عبد الرحمن بن جبير، ومن حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه. ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه، وابن بطة في الإبانة الكبرى، والطبراني في المعجم الكبير من حديث عصمة بن مالك، ومن حديث عقبة بن عامر، ورواه البيهقي في شعبه. وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله بمجموع طرقه كما في السلسلة الصحيحة (2/ 249 رقم الحديث750).

القرآن . كما في صحيح البخاري من حديث أنس رضي الله عنه أنه قال: «بعث النبي صلى الله عليه وسلم سبعين رجلا لحاجة يقال لهم: القراء..». وفي رواية له من طريق قتادة عن أنس: «كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل»، وفي رواية عند البيهقي ومستخرج أبي عوانة من طريق ثابت بن قيس عن أنس: «ويشترون به الطعام لأهل الصفة ويتدارسون القرآن بالليل ويتعلمون «.

يقول العلامة ابن خلدون رحمه الله: « ثم إن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا، ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم، وإنما كان ذلك مختصاً بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالاته بما تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعه منهم من عليتهم، وكانوا يسمون لذلك القراء، أي الذين يقرأون الكتاب لأن العرب كانوا أمة أمية، فاختص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ. وبقي الأمر كذلك صدر الملة. ثم عظمت أمصار الإسلام وذهبت الأمية من العرب بممارسة الكتاب، وتمكن الاستنباط وكمل الفقه وأصبح صناعةً وعلماً فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء». انتهى[1].

قلت: لكن الغالب أن لفظ القُراء إذا أطلق، فإنما يراد به أصحاب القرآن، الحفظةُ له، أو أئمةُ المساجد. فقد صح التفريق بين القارئ والفقيه، كما في أثر ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: « كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير ويربو فيها الصغير ويتخذها الناس سنة فإذا ترك منها شيء قيل: تركت السنة؟!

[1] مقدمة ابن خلدون (2\ 129.128) مؤسسة الكتب الثقافية.

قالوا: ومتى ذاك؟ قال: «إذا ذهبت علماؤكم وكثرت قراؤكم وقلّت فقهاؤكم وكثرت أمراؤكم وقلّت أمناؤكم والتُمست الدنيا بعمل الآخرة، وتُفقه لغير الدين «.[1]

وأيضا هذا المعنى هو المصطلح عليه عند الأئمة، فقد جاء في المنتقى: « قال الشيخ أبو إسحاق: «ولا تقبل شهادة أحد من أهل الأهواء، وإن كان لا يدعو إلى بدعته وتقبل شهادة القراء في جميع الأشياء إلا شهادة بعضهم على بعض فإنهم يتحاسدون كالضرائر، وقد اختلف في شهادة القراء بالألحان، وأحب إلي أن لا تجوز»[2].

وعليه: إذا أطلق لفظ القراء انصرف المعنى لقارئي القرآن. والله أعلم.

وعلى ضوء هذا الحديث نعلم أن في أمة النبي صلى الله عليه وسلم منافقين يقرؤون القرآن، بدليل ما جاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مر أو خبيث وريحها مر».

---

[1] رواه الدارمي (1 / 64) بإسنادين أحدهما صحيح والآخر حسن والحاكم (4 / 514) وغيرهما). وهذا الأثر وإن كان موقوفا فحكمه الرفع. قاله الشيخ الألباني رحمه الله. انظر كتابه قيام رمضان (ص: 3)، وكتابه تحريم آلات الطرب (ص: 16).

[2] المنتقى شرح الموطأ (حديث رقم 1208).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فقد يكون الرجل حافظا لحروف القرآن وسوره ولا يكون مؤمنا بل يكون منافقا . فالمؤمن الذي لا يحفظ حروفه وسوره خير منه . وإن كان ذلك المنافق ينتفع به الغير كما ينتفع بالريحان »[1].

يا من جهرتَ بالقُرَان مُظهــرا　　　مُحَسِّنا عند الأداء مُبهرا

هل يا أخي جلا عليك في الخفا　　　أم أنت ممن في خفائه جفا؟

فليس كل قارئٍ سيؤجـــرُ　　　ولا نَديُّ الصوتِ دوما يُشكرُ

---

[1] مجموع الفتاوى (11/ 398)

نفاق القراء

فإن مما صحَّ في الأثــــر عن النبي الصادق الفضلِ الأبَر

ما أكثر القرّاء ممن نافقوا فهُم بِدا[1] الرياء والعُجبِ شَقُوا

وأما نوع نفاق هؤلاء القراء:

فإما أنهم يحفظون القرآن نفيا للتهمة عن أنفسهم، وهم معتقدون تضييعه. وكان المنافقون في عصر النبي، صلى الله عليه وسلم، بهذه الصفة.[2]

وإما أنهم يراءون به الناس، وهذا أقرب عندي. كما قال الإمام الشوكاني رحمه الله في فيض القدير: «قال الزمخشري: أراد بالنفاق الرياء لأن كلا منهما إرادة ما في الظاهر خلاف ما في الباطن.

والمرائي أظهر بعمله الآخرة وأضمر ثناء الناس وعرض الدنيا، والقارئ أظهر أنه يريد الله وحده وأضمر حظ نفسه، وهو الثواب. ويرى نفسه أهلا له وينظر إلى عمله بعين الإجلال، فأشبه المنافق واستويا في مخالفة الباطن والظاهر». انتهى[3]

[1] بدا: أي بمرض. والأصل «بداء» أي بسبب داء الرياء. وإنما حذفت الهمزة للضرورة.

[2] قاله ابن منظور في لسان العرب (1/ 129)

[3] فيض القدير (2/ 102. 103)

وقال ابن بطة رحمه الله بعد ذكر حديث: « أكثر منافقي أمتي قراؤها »: «قال الشيخ عبيد الله بن محمد: فإن سأل سائل عن معنى هذا الحديث، وقال: لم خص القراء بالنفاق دون غيرهم؟ فالجواب عن ذلك: إن الرياء لا يكاد يوجد إلا في من نسب إلى التقوى، ولأن العامة والسوقة قد جهلوه، والمتحلين بحلية القراء قد حذقوه، والرياء هو النفاق، لأن المنافق هو الذي يسر خلاف ما يظهر، ويسر ضد ما يبطن، ويصف المحاسن بلسانه، ويخالفها بفعله، ويقول ما يعرف، ويأتي ما ينكر، ويترصد الغفلات لانتهاز الهفوات . وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله: هم الزنادقة، لأن النفاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هي الزندقة من بعده».ا.هـ[1]

قال الإمام الشوكاني رحمه الله: «قال الغزالي رحمه الله: احذر من خصال القراء أربعة: الأمل والعجلة والكبر والحسد، قال: وهي علل تعتري سائر الناس عموما والقراء خصوصا. ترى القارئ يطول الأمل فيوقعه في الكسل وتراه يستعجل على الخير فيقطع عنه، وتراه يحسد نظراءه على ما أتاهم الله من فضله، فربما يبلغ به مبلغا يحمله على فضائح وقبائح لا يقدم عليها فاسق ولا فاجر. ولهذا قال النووي: ما أخاف على دمي إلا القراء والعلماء، فاستنكروا منه ذلك، فقال ما أنا قلته وإنما قاله إبراهيم النخعي.

وقال عطاء: احذروا القراء واحذروني معهم، فلو خالفت أودهم لي في رمانة أقول إنها حلوة ويقول إنها حامضة، ما أمنته أن يسعى بدمي إلى سلطان جائر.

---

[1] الإبانة الكبرى لابن بطة (2/ 467)

وقال الفضيل لابنه: اشتروا دارا بعيدة عن القراء، مالي والقوم، إن ظهرت مني زلة قتلوني، وإن ظهرت علي حسنة حسدوني؟ ولذلك ترى الواحد منهم يتكبر على الناس ويستخف بهم معبسا وجهه كأنما يمن على الناس بما يصلي زيادة ركعتين، أو كأنما جاءه من الله منشور بالجنة والبراءة من النار، أو كأنه استيقن السعادة لنفسه والشقاوة لسائر الناس ثم مع ذلك يلبس لباس المتواضعين ويتماوت، وهذا لا يليق بالتكبر والترفع ولا يلائمه بل ينافيه لكن الأعمى لا يبصر». انتهى[1].

قال ابن بطال رحمه الله في شرحه: «وقال حذيفة رضي الله عنه: «أقرأ الناس بالقرآن منافق يقرؤه، لا يترك منه ألفًا ولا واوًا، لا يجاوز ترقوته». وعن زادان قال: «من قرأ القرآن ليستأكل به الناس، جاء يوم القيامة ووجهه عظم ليس عليه لحم». انتهى.[2]

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: « أنزل القرآن ليعمل به فاتخذتم دراسته عملاً، وسيأتي قوم يثقفونه تثقيف الغناء ليسوا بخياركم»، وفي لفظ آخر: «يقيمونه إقامة القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه».[3]

---

[1] انظر فيض القدير (2/ 102. 103)

[2] شرح صحيح البخارى . لابن بطال (10/ 284)، وأثر زادان ذكره القاسم بن سلام في فضائل القرآن (ص: 208)

[3] قوت القلوب لأبي طالب المكي (1/ 250)

وروى أبو عبيد بسنده من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: «تعلموا القرآن واسألوا الله به قبل أن يتعلمه قوم يسألون به الدنيا، فإن القرآن يتعلمه ثلاثة نفر: رجل يباهي به، ورجل يستأكل به الناس، ورجل يقرأه لله»[1].

وكان الحسن البصري رحمه الله يقول: « إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل وجعلتم الليل جملاً فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل أتتهم من ربّهم فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار».[2]

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «أنزل عليهم القرآن ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملاً، إن أحدهم ليتلو القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفاً وقد أسقط العمل به»[3].

وفي الحديث: « بادروا بالأعمال خصالا ستا: إمرة السفهاء و كثرة الشرط وقطيعة الرحم وبيع الحكم واستخفافا بالدم و نشوا يتخذون القرآن مزامير يقدمون الرجل ليس بأفقههم و لا أعلمهم ما يقدمونه إلا ليغنيهم «[4].

[1] الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (2/ 16). ومختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر للمروزي (ص: 180). والبيهقس في شعب الإيمان (4/ 198). وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (1/ 257)رقم الحديث:258

[2] قوت القلوب (1/ 107)

[3] إحياء علوم الدين (1/ 64)

[4] حديث صحيح سبق تخريجه في المقدمة.

آفة القراء العجب والرياء

إن أقبح داء أفسد القراءَ هو العجب والرياء، وهذه هي العلة في ذمهم، إذ الفساد نقيض الصلاح، وأصله اخْتِلَالُ النِّظَامِ وَانْتِفَاءُ النَّفْعِ مِنَ الْأَشْيَاءِ.قال تعالى: ﴿**وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ** ﴾ [الشعراء: 151، 152].

والعُجْبُ أوالعَجَبُ: إِنكارُ ما يَرِدُ عليك لقِلَّةِ اعْتِيادِه[1]. وهو أيضا عبارة عن تصور استحقاق الشخص رتبة لا يكون مستحقاً لها. وتغير النفس بما خفي سببه وخرج عن العادة مثله. قاله الجرجاني في التعريفات[2].

والرياء: مصدر راءيتُه مُراءاةً ورِياءً، من رَأْيِ العين ورِياء الناس، قال الجرجاني رحمه الله هو: «ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله فيه».[3]

وهذان آفتان مهلكتان للعبد، ومبطلتان للعمل: العجب والرياء.

أما العجب فهو الالتفات إلى الطاعة بعين الرضى، وهو في معنى الكبر. قال العلامة ابن عجيبة رحمه الله[4]: «وأما العجب فهو رؤية النفس وإسناد العمل إليها ورؤية المزية لها على الناس، قال تعالى: ﴿**فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**﴾

---

[1] انظر لسان العرب (1/ 580)

[2] التعريفات (ص: 147)

[3] المصدرنفسه (ص: 113)

[4] إيقاظ الهمم شرح متن الحكم ص: 207

[النجم: 32] قيل معناه: إذا عملت عملاً فلا تقل عملتُ، ولا تظهره عند من يعظمك لأجل علمه بذلك، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»[1].

وقال زيد بن أسلم معنى ﴿**فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**﴾ [النجم: 32] لا تعتقدوا أنها بارة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر منه: العجب»[2].

قال جعفر بن محمد: عَلم الله أن الذنب خير للمؤمن من العُجب، ولولا ذلك لما ابتلي مؤمن بذنب.

وقال الشاعر:

ومن أمن الآفات عجبا برأيه أحاطت به الآفات من حيث يجهل. [3]

قال بعض السلف[4]: «لَأَن أبيت نائماً وأصبح نادما أحب إلي من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً «.[5]

---

[1] رواه البزار والعقيلي، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة « (1802)

[2] رواه العقيلي وابن عدي والقضاعي وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة(658)

[3] الشاعر هو: نصر الخبزأرزي، قال في مطلع شعره: لسان الفتى حتف الفتى حين يجهل ... وكلّ امرئ ما بين فكّيه مقتل. (انظر نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة لأبي علي البصري(7/ 103)

[4] وهو مطرف بن عبد الله بن الشخير الحرشي العامري الإمام، القدوة، الحجة، أبو عبد الله الحرشي، العامري، البصري، أخو يزيد بن عبد الله. (سير أعلام النبلاء :4/ 187)

[5] الزهد لأحمد بن حنبل (ص: 195)، تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص: 485)، والحلية 2 / 200.

وقيل لعائشة رضي الله عنها: « متى يكون الرجل مسيئاً؟ قالت: إذا ظن أنه محسن». [1]

وقال عبد الصمد: سمعت وهبا يخطب الناس على المنبر فقال: احفظوا مني ثلاثا: إياكم وهوى متبعاً، وقرين سوء، وإعجاب المرء بنفسه. [2]

قال أبو عبد الله محمد العبدري القبيلي الفاسي رحمه الله في علامة المراءي: «وعلامته: الإعجاب برأيه، والإزراء على من لا يعمل مثل عمله، ويكون نظره للناس بالاحتقار لهم، ويتغضب عليهم في التقصير به. وقد روي في العلم: احذروا فتنة العابد الجاهل، والعالم الفاسق، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون». [3]

وأما الرياء: فهو أن يعمل العبد عملا ليراه الناس ويثنون عليه خيرا، فتكون نيته مبطلة لعمله. وقد وردت في ذلك أخبار كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، منها ما جاء في الصحيحين من حديث جندب مرفوعا: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ».

قال ابن بطال رحمه الله:» قوله: «من سمع» معناه من سمع بعمله الناس وقصد به اتخاذ الجاه والمنزلة عندهم، ولم يرد به وجه الله، فإن الله تعالى يسمع به خلقه، أى يجعله حديثًا عند الناس الذى أراد نيل المنزلة عندهم بعمله، ولا ثواب

---

[1] تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص: 486)، إحياء علوم الدين (3/ 370)

[2] سير أعلام النبلاء (4/ 549) والزهد لأحمد: 374، وابن عساكر: 17 / 480

[3] المدخل لابن الحاج (3/ 43). وأما الأثر: « اتقوا فتنة العابد..». فهو من قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله. رواه ابن المقرئ بسنده.(معجم ابن المقرئ (ص: 49)

له فى الآخرة عليه، وكذلك من راءى بعمله الناس راءى الله به، أي: أطلعهم على أنه فعل ذلك لهم ولم يفعله لوجهه، فاستحق على ذلك سخط الله وأليم عقابه، وقد جاء فى الحديث عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: «يقال للعبد يوم القيامة: فعلت كذا وكذا ليقال، فقد قيل، اذهبوا به إلى النار»«[1].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها» قال قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار».

---

[1] شرح صحيح البخارى . لابن بطال (10/ 208)

وعنه أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله تبارك وتعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[1].

وجاء عن الفضيل في قوله تعالى:(ليبلوكم أيكم أحسن عملا) سورة الملك:2. قال: «أخلصه وأصوبه». قيل يا أبا علي: «ما أخلصه وأصوبه»؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا، لم يقبل. وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا».[2]

---

[1] صحيح مسلم

[2] انظر تفسير البغوي (5/ 124)

آداب قارئ القرآن

تعريف الأدب:

اعلم رحمك الله: أن الأَدَب معناه الذي يَتَأَدَّبُ به الأَديبُ من الناس، سُمِّيَ أَدَباً لأَنه يَأْدِبُ الناسَ إِلى المحامِد ويَنْهاهم عن المقَابِح وأَصل الأدب الدعاء. قاله أبو منصور رحمه الله.[1]

قال الجرجاني رحمه الله في التعريفات: الأدب: عبارة عن معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ.[2]

وقال الإمام ابن القيم رحمه: «الأدب: اجتماع خصال الخير في العبد، ومنه المأدبة وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس».[3]

والقصد: أن القارئ عليه أن يتخلق بآداب وأخلاق باطنية، حيث لا يطلع عليها إلا خالقه، فهي مدار القبول والرد، وهي التي إن تخلق بها كان جزاؤه نيل رضى ربه عند لقائه، إذ رضى الله تعالى قد عُلق بالخشية، كما في قوله: (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) سورة البينة:8. أما الآداب الظاهرة، والأخلاق الجلية، فحظها في الدنيا.

---

[1] تهذيب اللغة (14/ 147)

[2] التعريفات (ص: 15)

[3] مدارج السالكين (2/ 396)

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «ومقام الخشية جامع لمقام المعرفة بالله، والمعرفة بحق عبوديته، فمتى عرف ـ العبد ـ الله، وعرف حقه، اشتدت خشيته له، كما قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماءُ﴾سورة فاطر:28، فالعلماء به وبأمره هم أهل خشيته. قال النبي صلى الله عليه وسلم: « أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية». انتهى من المدارج.[1]

ثم إن العبد عليه أن ينظر في كل عمل إلى رضى ربه جل وعلا، فأينما كان رضى الله فثم مكان العبودية. وقد جاء في الحديث: «من أرضى الله بسخط الناس، كفاه الله الناس، ومن أسخط الله برضى الناس، وكله الله إلى الناس»[2].

فإياك ـ أيها القارئ ـ أن تقرأ القرآن ليثني عليك الناس، أو لتنال إعجابهم بصوتك وأدائك، فإن فعلت وكلك الله إليهم. نعوذ بالله من الخذلان.

[1] مدارج السالكين (1/ 130). أما الحديث فلفظ البخاري: « .. إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا».

[2] رواه ابن حبان في صحيحه، وصححه الألباني رقم2311 السلسلة الصحيحة (5/ 310)

الأدب الأول
فهم أصل الكلام

فَهْمُ كلام الله بالتدبُّرِ فيقشعرُّ الجلدُ مما يعتري

هذا أول أدب: فهم أصل الكلام.

والفهم: هو تصور المعنى من لفظ المخاطب[1]. مع علمه ومعرفته بالقلب. والمقصود به هنا، أن يفهم القارئ عظمة الكلام وعلوّه وفضلَ الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه حيث يسر لهم النطق بكلامه فقال: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾ سورة القمر:22. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: « أي: سهلنا لفظه، ويسرنا معناه لمن أراده، ليتذكر الناس. كما قال: ﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب**﴾ [سورة ص: 29] ، وقال تعالى: ﴿**فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا**﴾ [مريم: 97] .

قال مجاهد: ﴿**ولقد يسرنا القرآن للذكر**﴾ يعني: هونا قراءته.

وقال السدي: يسرنا تلاوته على الألسن.

وقال الضحاك عن ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان الآدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله، عز وجل.

---

[1] معجم الفروق اللغوية (ص: 414)

قلت ـ القائل ابن كثير ـ: ومن تيسيره، تعالى، على الناس تلاوة القرآن ما تقدم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف». انتهى[1].

وقال الإمام السجستاني رحمه الله: أي: سهلناه للتلاوة، وَلَوْلَا ذَلِك مَا أطَاق الْعباد أَن يلفظوا بِهِ، وَلَا أَن يسمعوه»[2].

ومن رحمة الله تعالى بخلقه، أن جعل فهم القرآن ميسَّرا لعامتهم وخاصتهم، وفي هذا من الإعجاز ما الله به عليم.

يقول الأستاذ محمد بن عبد الله دراز (المتوفى: 1377هـ) رحمه الله:

«خطاب العامة» و»خطاب الخاصة»: وهاتان غايتان أخريان متباعدتان عند الناس، فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذي تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوًى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب، ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم، فلا غنى لك -إن أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حظها كاملًا من بيانك- أن تخاطب كل واحدة منها بغير ما تخاطب به الأخرى؛ كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال، فأما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء

---

[1] تفسير ابن كثير (7/ 478). وأما الحديث فمتفق عليه،أخرجه البخاري في صحيحه:رقم الحديث 4992، ومسلم رقم الحديث: 818

[2] غريب القرآن للسجستاني (ص: 525). غريب القرآن لابن قتيبة (ص: 432)

والأغبياء، وإلى السوقة والملوك فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته، فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم. فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوي على أفهامهم، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة، فهو متعة العامة والخاصة على السواء، ميسر لكل من أراد ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾سورة القمر:22». انتهى[1]

فانظر كيف لطف بك الحق سبحانه في إيصال معاني كلامه الذي هو صفة له قائمة بذاته إلى أفهام خلقه؟! وكيف تجلت لك تلك الصفة في طي حروف وأصوات هي صفات البشر، إذ يعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله عز وجل إلا بوسيلة صفات نفسه.

والقرآن هو كلام الله- حروفه ومعانيه- منه بدأَ وإليه يعود، مُنَزلٌ غير مخلوق، تَكَلّم الله به حقا، وأَوحاه إلى جبريل؛ فنزل به جبريل- عليه السلام- على محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

أَنزله الحكيم الخبير بلسان عربي مبين، ونُقل إلينا بالتواتر الذي لا يرقى إليه شك، ولا ريب، قال الله تعالى﴿**وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**﴾ [الشعراء: 192 - 195].

[1] النبأ العظيم (ص: 147، 148)

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك، ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: 23]..» الحديث[1].

فإذا تفكرت أيها القارئ وتدبرت أصل الكلام الذي تتلوه، وعظمة المتكلم به، واستحضرت جلال ربك، حينها: يقشعر جلدُك. كما وصف الله عباده بقوله: **﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾** [الزمر: 23].

قال العلامة ابن عاشور رحمه الله: «معنى تقشعر منه: تقشعر من سماعه وفهمه، فإن السماع والفهم يومئذ متقارنان لأن السامعين أهل اللسان. يقال: اقشعر الجلد، إذا تقبض تقبضا شديدا كالذي يحصل عند شدة برد الجسد ورعدته. ويقال: اقشعر جلده، إذا سمع أو رأى ما يثير انزعاجه وروعه، فاقشعرار الجلود كناية عن وجل القلوب الذي تلزمه قشعريرة في الجلد غالبا.

وقد عد عياض في «الشفاء» من وجوه إعجاز القرآن: الروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعه والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لعلو مرتبته على كل كلام من

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه.

شأنه أن يهابه سامعه[1]، قال تعالى(**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**) [الحشر: 21].

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عهنا قالت: «كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا قرئ عليهم القرآن، كما نعتهم الله، تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم»[2]. وخص القشعريرة بالذين يخشون ربهم باعتبار ما سيردف به من قوله(ثم تلين جلودهم) كما يأتي، قال عياض: « وهي . أي الروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعه . على المكذبين به أعظم، حتى كانوا يستثقلون سماعه كما قال تعالى: (**وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا**) [الإسراء: 46]».[3]

وهذه الروعة قد اعترت جماعة قبل الإسلام، فمنهم من أسلم لها لأول وهلة. ففي الحديث الصحيح عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ قوله تعالى: (**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (36) أَمْ عِنْدَهُمْ**

---

[1] قال القاضي عياض في الشفا بتعريف حقوق المصطفى (1/ 273) من معجزات القرآن: « ومنها الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله وإنامة خطره..».

[2] تفسير ابن أبي حاتم (10/ 3249)

[3] الشفا (1/ 274273)

خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: 35 - 37]، كاد قلبي أن يطير، وذلك أول ما وقر الإسلام في قلبي»[1].

ومنهم من لم يسلم، روي عن محمد بن كعب القرظي قال: «أخبرت أن عتبة بن ربيعة كلم النبي صلى الله عليه وسلم في كفه عن سب أصنامهم وتضليلهم، وعرض عليه أمورا والنبي صلى الله عليه وسلم يسمع، فلما فرغ قال له النبي صلى الله عليه وسلم: اسمع ما أقول، وقرأ عليه حم ف صلت»« حتى بلغ قوله: **﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾** [فصلت: 13]. فأمسك عتبة على فم النبي صلى الله عليه وسلم وناشده الرحم أن يكف». أي عن القراءة[2].

وأما المؤمن فلا تزال روعته وهيبته إياه مع تلاوته توليه انجذابا وتكسبه هشاشة لميل قلبه إليه، قال تعالى: **﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾** [الزمر: 23]». انتهى.[3]

وعن عبيد بن عمير رضي الله عنه أنه قال لعائشة رضي الله عنها: «أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فسكتت، ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي قال: يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي.

---

[1] صحيح البخاري برقم (4854)

[2] أخرجه البيهقي في « الدلائل « وابن عساكر من حيث جابر بن عبدالله رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية:1\161

[3] التحرير والتنوير (23/ 388 389)

قلت: والله إني أحب قربك وأحب ما يسرك.

قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي.

قالت: فلم يزل يبكي حتى بل حجره.

قالت: وكان جالسا فلم يزل يبكي . صلى الله عليه وسلم . حتى بل لحيته.

قالت: ثم بكى حتى بل الأرض. فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي. قال: يا رسول الله، تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدا شكورا؟ لقد نزلت علي الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**..﴾ [آل عمران: 200.190] الآية كلها».[1]

وروى الإمام الطبري رحمه الله في جامعه بسنده عن إبراهيم، قال: قرأ عمر بن الخطاب سورة مريم فسجد وقال: «هذا السجود، فأين البكيّ؟». يريد: فأين البكاء[2].

ويحكي سيد قطب رحمه الله عن سر كون المشركين يسجدون مع المسلمين في آخر سورة النجم، فيقول: « لقد بقيت فترة أبحث عن السبب الممكن لهذا

---

[1] رواه ابن حبان في صحيحه وغيره. صححه الألباني صحيح الترغيب والترهيب (2/ 88).

[2] جامع البيان للطبري (18/ 215)

السجود. ويخطر لي احتمال أنه لم يقع وإنما هي رواية ذكرت لتعليل عودة المهاجرين من الحبشة بعد نحو شهرين أو ثلاثة. وهو أمر يحتاج إلى التعليل.[1]

وبينما أنا كذلك وقعت لي تلك التجربة الشعورية الخاصة التي أشرت إليها من قبل..

كنت بين رفقة نسمر حينما طرق أسماعنا صوت قارئ للقرآن من قريب، يتلو سورة النجم. فانقطع بيننا الحديث، لنستمع وننصت للقرآن الكريم. وكان صوت القارئ مؤثرا وهو يرتل القرآن ترتيلا حسنا.

وشيئا فشيئا عشت معه فيما يتلوه. عشت مع قلب محمد- صلى الله عليه وسلم- في رحلته إلى الملأ الأعلى.

عشت معه وهو يشهد جبريل- عليه السلام- في صورته الملائكية التي خلقه الله عليها. ذلك الحادث العجيب المدهش حين يتدبره الإنسان ويحاول تخيله! وعشت معه وهو في رحلته العلوية الطليقة. عند سدرة المنتهى.

---

[1] سجود المشركين لسماع سورة النجم ثابت صحيح، أخرجه البخاري (1071) في سجود القرآن: باب سجود المسلمين مع المشركين، و (4862) في التفسير: باب (فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا) ، من سورة النجم، والترمذي (575) في الصلاة: باب ما جاء في السجدة في النجم، والبغوي (763) ، والدارقطني 409/1 ، و صحيح ابن حبان (6/ 469): عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس». فسجود المشركين ثابت، وسيد قطب رحمه الله يعرف ذلك، فإنه قال عنها في ظلال القرآن (6/ 3419): «بهذا تواترت الروايات. ثم افترقت في تعليل هذا الحادث الغريب». فهو وقف يبحث عن علة السجود لا عن صحته. وإنما الذي لا يصح هو كون رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ (النجم) فلما بلغ (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى وشفاعتهم ترتجى فلما بلغ آخرها سجد وسجد المسلمون والمشركون.

وجنة المأوى. عشت معه بقدر ما يسعفني خيالي، وتحلق بي رؤاي، وبقدر ما تطيق مشاعري وأحاسيسي، وتابعته في الإحساس بتهافت أساطير المشركين حول الملائكة وعبادتها وبنوتها وأنوثتها.. إلى آخر هذه الأوهام الخرفة المضحكة، التي تتهاوى عند اللمسة الأولى ووقفت أمام الكائن البشري ينشأ من الأرض، وأمام الأجنة في بطون الأمهات. وعلم الله يتابعها ويحيط بها.

وارتجف كياني تحت وقع اللمسات المتتابعة في المقطع الأخير من السورة.. الغيب المحجوب لا يراه إلا الله.

والعمل المكتوب لا يند ولا يغيب عن الحساب والجزاء. والمنتهى إلى الله في نهاية كل طريق يسلكه العبيد.

والحشود الضاحكة والحشود الباكية. وحشود الموتى. وحشود الأحياء. والنطفة تهتدي في الظلمات إلى طريقها، وتخطو خطواتها وتبرز أسرارها فإذا هي ذكر أو أنثى. والنشأة الأخرى. ومصارع الغابرين. والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى! واستمعت إلى صوت النذير الأخير قبل الكارثة الداهمة: ﴿**هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (56) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (57) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ** ﴾ [النجم: 56 - 58]..

ثم جاءت الصيحة الأخيرة. واهتز كياني كله أمام التبكيت الرعيب: ﴿**أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ**﴾ [النجم: 59 - 61]

فلما سمعت: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم: 62].. كانت الرجفة قد سرت من قلبي حقا إلى أوصالي. واستحالت رجفة عضلية مادية ذات مظهر مادي، لم أملك مقاومته. فظل جسمي كله يختلج، ولا أتمالك أن أثبته، ولا أن أكفكف دموعا هاتنة، لا أملك احتباسها مع الجهد والمحاولة! وأدركت في هذه اللحظة أن حادث السجود صحيح، وأن تعليله قريب. إنه كامن في ذلك السلطان العجيب لهذا القرآن، ولهذه الإيقاعات المزلزلة في سياق هذه السورة. ولم تكن هذه أول مرة أقرأ فيها سورة النجم أو أسمعها. ولكنها في هذه المرة كان لها هذا الوقع، وكانت مني هذه الاستجابة.. وذلك سر القرآن..»[1].

فأين أنا وأنت أيها القارئ من هذا الشعور، ونحن نتلوا كتاب الله تعالى؟ أسأل الله لي ولك بلوغ هذه المرتبة، فوالله لقد غشي قلوبَنا الران، حتى صرنا لا نتأثر بسماع القرآن، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

[1] في ظلال القرآن (6/ 3420. 3421)

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الأدب الثاني

التعظيم

وعَظِّمِ الكريم جلّ وعلا واجعل كلامَه رفيعا في العلا

هذا الأدب الثاني: وهو تعظيم كلام الله تعالى.

والعظمة صفة مِنْ صِفاتِ الله عزَّ وجلَّ، فهو العلِيُّ العَظِيمُ، ويُسبِّح العبدُ رَبَّه فيقول: «سبحان رَبِّي العظيم». والعظيم هو الذي جاوَزَ قَدْرُهُ وجلَّ عن حدودِ العُقول حتى لا تُتَصَوَّر الإحاطةُ بِكُنْهِهِ وحَقِيقتهِ[1]. كما أنه سبحانه ذو الجَلال والإِكرام، جَلَّ جَلال الله، وجَلالُ الله عظمتُه، ولا يقال الجَلال إلا لله، والجَلِيلُ من صفات الله تقدس وتعالى[2].

فعليك أيها القارئ عند البدء بتلاوة القرآن أن تستحضر في قلبك عظمة المتكلم، وتستحضر أن ما تقرأه ليس من كلام البشر، وأن في تلاوة كلام الله عز وجل غاية الخطر، فإنه تعالى قال: ﴿**لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**﴾ [الواقعة: 79]. فكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهراً[3]، فباطن معناه أيضاً بحكم عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهراً عن كل رجس، ومستنيراً بنور التعظيم والتوقير. وكما لا يصلح لمس

---

[1] المقصد الأسنى شرح الأسماء الحسنى للإمام الغزالي(ص: 104)

[2] لسان العرب (11/ 116)

[3] قال الإمام الشوكاني رحمه الله: ذهب ابن عباس والشعبي والضحاك وزيد بن علي والمؤيد بالله والهادوية وقاضي القضاة وداود إلى أنه يجوز له مس المصحف. انظر نيل الأوطار (2/ 38)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

جلد المصحف كل يد فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان، ولا لنيل معانيه كل قلب. ولمثل هذا التعظيم روي عن عكرمة بن أبي جهل[1]: أنه كان يفتح المصحف ويضع وجهه عليه ويقول: « كلام ربي . كلام ربي «[2].

فتعظيم الكلام تعظيم للمتكلم، ولن تحضرك عظمة المتكلم ما لم تتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله. فإذا حضر ببالك العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار، وعلمت أن المتكلم هو الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد، وأن الكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته وبين نقمته وسطوته، إن أنعم فبفضله، وإن عاقب فبعدله، وأنه الذي يقول: «هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي»[3]. وصرتَ كأنك تشاهده سبحانه وتنظر إليه فوق سماواته على عرشه يكلم ملائكته ويدبر أمر مملكته، ويسمع أصوات خلقه، ويرى أفعالهم وحركاتهم، ويشاهد بواطنهم كما يشاهد ظواهرهم، يأمر وينهى، ويرضى ويغضب، ويحب ويسخط، ويضحك من قنوطهم وَقُرْبِ غِيَرِهِ[4]، ويجيب دعوة مضطرهم ويغيث ملهوفهم، ويعين محتاجهم ويجبر كسيرهم، ويغني فقيرهم ويميت ويحيي، ويمنع ويعطي، يؤتي الحكمة من يشاء،

---

[1] أسلم عكرمة عام الفتح وخرج إلى المدينة ثم إلى قتال أهل الردة ووجهه أبو بكر الصديق إلى جيش نعمان فظهر عليهم ثم إلى اليمن ثم رجع فخرج إلى الجهاد عام وفاته فاستشهد.

[2] تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (10/ 320)

[3] رواه أحمد والحاكم من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي. وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة: 1\113.

[4] بمعنى: فقير الحال

مالك الملك يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كل يوم هو في شأن، يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويفك عانيا، وينصر مظلوما، ويقصم ظالما، ويرحم مسكينا، ويغيث ملهوفا، ويسوق الأقدار إلى مواقيتها، ويجريها على نظامها، ويقدم ما يشاء تقديمه، ويؤخر ما يشاء تأخيره، فأزمة الأمور كلها بيده، ومدار تدبير الممالك كلها عليه[1]...إلخ.

فبمثل هذا التفكر يحضر لك تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « فمن سمع قول الله تعالى: ﴿**لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**﴾ [الواقعة: 79]، وقال: إنه اللوح المحفوظ أو المصحف فقال: كما أن اللوح المحفوظ الذي كتب فيه حروف القرآن لا يمسه إلا بدن طاهر فمعاني القرآن لا يذوقها إلا القلوب الطاهرة، وهي قلوب المتقين كان هذا معنى صحيحا واعتبارا صحيحا. ولهذا يروى هذا عن طائفة من السلف ؛ قال تعالى: ﴿**الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [البقرة: 1، 2]. وقال: ﴿**هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران: 138]. وقال: ﴿**يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [المائدة: 16]. وأمثال ذلك . وكذلك من قال: «لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا جنب».[2] فاعتبر بذلك أن القلب لا يدخله حقائق

---

[1] نقلا عن الإحياء بتصرف 1\281. ونقلا عن كلام ابن القيم رحمه الله مدراج السالكين 3\384،385

[2] روى النسائي في سننه عن علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:» الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة ولا كلب ولا جنب». صححه الألباني في صحيح النسائي: 9\353

الإيمان إذا كان فيه ما ينجسه من الكبر والحسد، فقد أصاب. قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: 41]، وقال تعالى: ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ**﴾ [الأعراف: 146]، وأمثال ذلك». انتهى[1].

فإذا استحضرت أيها القارئ هذا الشعور، وتذكرت جيدا أنك تتلو كلام ربك العظيم، ازددت له مهابة وتعظيما، وإجلالا وتوقيرا. كما قال تعالى: ﴿**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**﴾ [الحشر: 21].
قال الإمام الشوكاني رحمه الله: «أي: من شأنه، وعظمته، وجودة ألفاظه، وقوّة مبانيه، وبلاغته، واشتماله على المواعظ التي تلين لها القلوب، أنه لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة في الأرض لرأيته مع كونه في غاية القسوة، وشدّة الصلابة، وضخامة الجرم خاشعاً متصدعاً، أي: متشققاً من خشية الله سبحانه، حذراً من عقابه، وخوفاً من أن لا يؤدي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله، وهذا تمثيل وتخييل يقتضي علوّ شأن القرآن وقوّة تأثيره في القلوب، ويدلّ على هذا قوله: ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الحشر: 21]. فيما يجب

---

[1] مجموع الفتاوى (13/ 242) وأيضا (5/ 551، 552)

عليهم التفكر فيه؛ ليتعظوا بالمواعظ، وينزجروا بالزواجر. وفيه توبيخ، وتقريع للكفار حيث لم يخشعوا للقرآن، ولا اتعظوا بمواعظه، ولا انزجروا بزواجره»[1].

وانظر - يا رعاك الله - كيف يتعامل أحدنا مع رسائل الإخوان، أو الأقارب، أو أصحاب الشركات، أو المؤسسات، أو ما شابه ذلك، فإننا نُقبل عليها إقبالا، ونلتزم الصمت لفهم ما في الرسالة، ونتفاعل معها بقدر قيمة المرسل. فكيف والمتكلم بالقرآن هو الخالق البارئ، الكبير المتعال، الملك القهار، العزيز الغفار، المتفرد بتصريف الأحوال على التفصيل والإجمال، تقديرا وتدبيرا، المتعالي بعظمته ومجده!؟

وقد روي أنه مكتوب في التوراة: « يا عبدي، أما تستحي مني؟! يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت في الطريق تمشي، فتعدل عن الطريق وتقعد لأجله، وتقرؤه وتتدبره حرفاً حرفاً، حتى لا يفوتك شيء منه. وهذا كتابي أنزلته إليك، انظر كم وصلت لك فيه من القول، وكم كررت عليك فيه، فتأملت طوله وعرضه، ثم أنت معرض عنه، أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك؟! أي عبدي، يقعد إليك بعض إخوانك فتقبل عليه بكل وجهك، وتصغي إلى حديثه بكل قلبك، فإن تكلم متكلم، أو شغلك شاغل عن حديثه، أومأت إليه، أن: كف. وها أنا ذا مقبل عليك ومحدث لك، وأنت معرض بقلبك عني، فجعلتني أهون عندك من بعض إخوانك». أو كما قال[2].

---

[1] فتح القدير(5/ 246)

[2] قوت القلوب لأبي طالب المكي (1/ 109). وأما الأخبار الإسرائيلية فإنها لا تصدق ولا تكذب، ولكن يستأنس بها في بعض الأمور التي لا تخالف أحكام الإسلام.

الأدب الثالث

حضور القلب

وحضِّرِ القلبَ يكن شهيدا مدّكرا وعدًا كذا الوعيدا

الحضور لغة: نقيض المغيب والغيبة.[1]

والمراد به هنا: أن تحضر قلبك أيها القارئ حال القراءة، وأنت شهيد غير غائب، تارك لحديث نفسك، غير شارد الذهن.

فحضور القلب معناه: أن لا يكون غائبا عند التلاوة أو الاستماع. وإلا فلن يحصل لك نفع ولا أجر ولا هدى ولا ذكرى. كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ [سورة ق (37)]. قال القرطبي في تفسيره: « قال الزجاج: أي قلبه حاضر فيما يسمع. وقال سفيان: أي لا يكون حاضرا وقلبه غائب».ا.هـ.[2]

واعلم ـ رحمني الله وإياك ـ أن القلب هو: « العقل وإدراك الأشياء على ما هي عليه.

وإلقاء السمع: مستعار لشدة الإصغاء للقرآن ومواعظ الرسول صلى الله عليه وسلم، كأن أسماعهم طرحت في ذلك فلا يشغلها شيء آخر تسمعه.

---

[1] لسان العرب (4/ 196)

[2] الجامع لأحكام القرآن (17/ 23)

والشهيد: المشاهد، وصيغة المبالغة فيه للدلالة على قوة المشاهدة للمذكر، أي تحديق العين إليه للحرص على فهم مراده مما يقارن كلامه، من إشارة أو سحنة[1]، فإن النظر يعين على الفهم. وقد جيء بهذه الجملة الحالية للإشارة إلى اقتران مضمونها بمضمون عاملها، بحيث يكون صاحب الحال ملقيا سمعه مشاهدا. وهذه حالة المؤمن، ففي الكلام تنويه بشأن المؤمنين وتعريض بالمشركين بأنهم بعداء عن الانتفاع بالذكريات والعبر. وإلقاء السمع مع المشاهدة يوقظ العقل للذكرى والاعتبار إن كان للعقل غفلة».ا.ه.[2]

ولذلك نجد قوله تعالى: **﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾** [مريم: 12] قال قتادة ومجاهد: أي بجد. وقال ابن زيد: القوّة أن يعمل ما أمره الله به، ويجانب فيه ما نهاه الله عنه. ذكره الإمام الطبري في جامعه.[3]

قال أبو حامد الغزالي رحمه الله: «وأخذه بالجد أن يكون متجرداً له عند قراءته منصرف الهمة إليه عن غيره، وقيل لبعضهم: « إذا قرأت القرآن تحدث نفسك بشيء؟ فقال أو شيء أحب إلي من القرآن حتى أحدث به نفسي!».[4] وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية، وهذه الصفة تتولد عما قبلها من التعظيم، فإن المعظم للكلام الذي يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل

---

[1] السحنة: الهيئة.

[2] التحرير والتنوير (26/ 324)

[3] جامع البيان في تأويل القرآن (18/ 155)

[4] قوت القلوب لأبي طالب المكي(1/ 86)

عنه. ففي القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالي أهلاً له فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره وهو في متنزه ومتفرج، والذي يتفرج في المتنزهات لا يتفكر في غيرها؟». ا.هـ[1].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله في الفوائد: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله. قال تعالى: (**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**) [سورة ق (37)]. وقوله لمن كان له قلب. فهذا هو المحل القابل والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله. كما قال تعالى(**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ لِتُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ**)[2]. وقوله: وألقى السمع أي وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام. وقوله: (وهو شهيد) أي شاهد القلب حاضر غير غائب. قال ابن قتيبة: «استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه». وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله. فإذا حصل المؤثر ـ وهو القرآن ـ والمحل القابل ـ وهو القلب الحي ـ ووجد الشرط ـ

---

[1] إحياء علوم الدين (1/ 281)

[2] (يس:69،70)

وهو الإصغاء ـ وانتفى المانع ـ وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر ـ حصل الأثر، وهو الانتفاع والتذكر». انتهى[1].

إن حضور القلب عند التلاوة، إنما هو من أجل وعي وفهم الوعد والوعيد. فإن الوَعْيَ حِفْظ القلبِ الشيءَ، يقال: وعَى الشيء والحديث، يَعِيه وَعْياً، وأَوْعاه، أي: حَفِظَه وفَهِمَه وقَبِلَه فهو واعٍ. وفلان أَوْعَى من فلان أَي: أَحْفَظُ وأَفْهَمُ.[2]

وفي الحديث الصحيح عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « نضر الله امرءا سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى له من سامع»[3].

ويستعمل «الوعد» للخير، في حين يستعمل «الوعيد» للشر، قال الفرّاء: تقول العرب: وعدته خيرا، ووعدته شرا. فإذا أسقطوا الخير والشر، قالوا: وعدته ـ في الخير ـ و أوعدته ـ في الشر».[4]

وقال الأصمعي رحمه الله: كنت عند أبي عمرو بن العلاء، فجاء عمرو بن عبيد، فقال: يا أبا عمرو، وهل يخلف الله الميعاد؟ فقال: لا. فذكر آية وعيد، فقال له: أمن العجم أنت؟ إن العرب تَعدُ الرجوع عن الوعد لؤما، وعن الإيعاد كرما، أومَا سمعتَ قول الشاعر ـ هو عامر بن الطفيل ـ:

---

[1] الفوائد (ص: 3)

[2] لسان العرب (15/ 396)

[3] رواه الترمذي وابن ماجه. صححه الألباني في مشكاة المصابيح (1/ 49)

[4] التبصرة 205/1.

لا يُرْهِبُ ابنَ العم منى سَطْوَتـي ولا أخْتَتِي من سَطْوة المتَهَـدِّد
فإنِّي وَإن أوْعَدْتُه أوْ وَعَدْتُــه لَمُخْلِفُ إيعَادي ومُنْجزُ مَوْعدي.[1]

وفي الحديث: « إن أحسن الناس قراءة الذي إذا قرأ رأيت أنه يخشى الله».[2]

وما ذلك . والله أعلم . إلا لتأثره بآيات الوعد والوعيد. جعلني الله وإياكم منهم.

ومما يساعد على ذلك، أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود. ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي. فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية، فليبك على فقد الحزن والبكاء، فإن ذلك أعظم المصائب[3].

قال الإمام النووي رحمه الله: «وروينا عن بهز بن حكيم أن زرارة بن أوفى التابعي الجليل رضي الله عنه أمهم في صلاة الفجر فقرأ حتى بلغ: (**فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ** (8) **فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ**) [المدثر: 8، 9]. خر ميتا. قال بهز وكنت فيمن حمله»[4].

وروى ابن قدامة بسنده عن يعقوب بن يوسف قال: «كان الفضيل بن عياض إذا علم أن ابنه علياً خلفه – يعني في الصلاة – مر ولم يقف ولم يخوف، وإذا علم

---

[1] ربيع الأبرار للزمخشري 1\104

[2] رواه أبو نعيم. وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (4/ 157)

[3] مستفاد من إحياء علوم الدين (1/ 277)

[4] التبيان (ص: 83)

أنه ليس خلفه تنوق[1] في القرآن وحزن وخوف، فظن يوماً أنه ليس خلفه، فأتى على ذكر هذه الآية: (**ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين**) المؤمنون:106. قال: فخر علي مغشياً عليه، فلما علم أنه خلفه وأنه قد سقط تجوز في القراءة، فذهبوا إلى أمه فقالوا: أدركيه، فجاءت فرشت عليه ماء فأفاق، فقالت: لفضيل: أنت قاتل هذا الغلام علي، فمكث ما شاء الله، فظن أنه ليس خلفه فقرأ (**وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون**) الزمر:47. فخر ميتاً، وتجوز أبوه في القراءة، وأتت أمه فقيل لها: أدركيه، فجاءت فرشت عليه ماء فإذا هو ميت رحمه الله».[2]

---

[1] تنوق: تأنق وتجمل وتزين. قال ابن منظور: « تنوق فلان في مطعمه وملبسه وأموره إذا تجود وبالغ». (لسان العرب (10/ 364)

[2] التوابون لابن قدامة (ص: 128)

.

الأدب الرابع

التدبر

تدبُّرٌ تفكُّرٌ في آيِهِ لا تشتغلْ لا تلتفتْ لغيرِهِ

وهذا الأدب الرابع: التدبر.

قال الجرجاني في التعريفات: «التدبر: عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر، إلا أن التفكر تصرف القلب بالنظر في الدليل، والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب»[1].

والمقصود منه هنا، ما أشار إليه العلامة ابن القيم رحمه الله بقوله:»وتدبُّر الكلام: أن ينظر في أوله وآخره ثم يعيد نظره مرة بعد مرة، ولهذا جاء على بناء التفعل كالتجرع، والتفهم والتبين. وسمي استبصارا وهو استفعال من التبصر، وهو تبين الأمر وانكشافه وتجليه للبصيرة. وكل من التذكر والتفكر، له فائدة غير فائدة الآخر.

فالتذكر يفيد تكرار القلب على ما علمه وعرفه ليرسخ فيه ويثبت ولا ينمحي فيذهب أثره من القلب جملة.

والتفكر يفيد تكثير العلم واستجلاب ما ليس حاصلا عند القلب، فالتفكر يُحصله، والتذكر يحفظه».[2]

---

[1] التعريفات (ص: 54)

[2] مفتاح دار السعادة (1 / 183)

وقال الإمام الغزالي رحمه الله: « التدبر: وهو وراء حضور القلب، فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن، ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره. والمقصود من القراءة التدبر. ولذلك سُن لنا الترتيل في الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن. قال علي رضي الله عنه: «لا خير في عبادة ليس فيها تفقه، ولا خير في تفقه ليس فيه تفهم، ولا خير في قراءة ليس فيها تدبر»[1].

لذا، قال أبو حامد الغزالي رحمه الله: « إذا لم يتمكن ـ القارئ ـ من التدبر إلا بترديد الآية فليردد، إلا أن يكون خلف إمام، فإنه لو بقي في تدبر آية وقد اشتغل الإمام بآية أخرى كان مسيئاً. مثل من يشتغل بالتعجب من كلمة واحدة مما يناجيه عن فهم بقية كلامه.

وكذلك إن كان في تسبيح الركوع وهو متفكر في آية قرأها إمامه فهذا وسواس. فقد روي عن عامر بن عبد قيس أنه قال:»الوسواس يعتريني في الصلاة، فقيل: في أمر الدنيا؟ فقال: لأن تختلف في الأسنة أحب إلي من ذلك، ولكن يشتغل قلبي بموقفي بين يدي ربي عز وجل. وأني كيف أنصرف». فعد ذلك وسواساً. وهو كذلك، فإنه يشغله عن فهم ما هو فيه، والشيطان لا يقدر على مثله إلا بأن يشغله بمهم ديني، ولكن يمنعه به عن الأفضل. ولما ذكر ذلك للحسن، قال: «إن كنتم صادقين عنه فما اصطنع الله ذلك عندنا».

---

[1] أخلاق العلماء للآجري (ص: 73)

وعن أبي ذر قال: « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ليلة فقام بآية يرددها وهي: ﴿**إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [المائدة: 118]»[1].

وقام تميم الداري رضي الله عنه ليلة بهذه الآية: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ [الجاثية: 21].

وقام سعيد بن جبير ليلة يردد هذه الآية: ﴿**وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ**﴾ [يس: 59].

وقال بعضهم: «إني لأفتتح السورة فيوقفني بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر».

وكان بعضهم يقول:» آية لا أتفهمها ولا يكون قلبي فيها، لا أعد لها ثواباً».

وحكي عن أبي سليمان الداراني أنه قال: «إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال، أو خمس ليال. ولولا أني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها».

وعن بعض السلف أنه بقي في سورة هود ستة أشهر، يكررها ولا يفرغ من التدبر فيها.

وقال بعض العارفين: «لي في كل جمعة ختمة، وفي كل شهر ختمة، وفي كل سنة ختمة، ولي ختمه منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد». وذلك بحسب

---

[1] حديث صحيح رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والبيهقي.

درجات تدبره وتفتيشه. وكان هذا أيضاً يقول: « أقمت نفسي مقام الأجراء، فأنا أعمل مياومة ومجامعة ومشاهرة ومسانهة». انتهى[1].

وقال رحمه الله في «النصيحة الكافية»: «وأما تدبر آيات الكتاب العزيز فله شروط ثلاثة: أحدها: العلم بغريبه، وما لا بد له من أحكامه، من غير إفراط. وعدمُ التقيد بالمحفوظ من التفاسير، بعد إثبات أحكامها. والنظر في كل مقام بحسبه، فللقرآن ظاهر وهو للنحاة والقراء، وباطن وهو لأصحاب المعاني[2]، وحَدّ وهو للفقهاء، ومطلع وهو للعلماء، أهل الذوق والشهود».[3]

والتدبر قرين التأمل، وهو لابد منه لقارئ القرآن، إلا أن التأمل معناه: التَّثَبُّت، وتأَمَّلتُ الشيءَ أَي نظرت إِليه مُستثْبِتاً له، وتَأَمّل الرجلُ تَثَبَّت في الأَمر والنظر.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: « فصل: وأما التأمل في القرآن: فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه وجمع الفكر على تدبره وتعقله وهو المقصود بإنزاله لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر قال الله تعالى:(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) [ص: 29]. وقال تعالى:(**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**) [محمد: 24]]. وقال تعالى: (**أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا**

[1] إحياء علوم الدين بتصرف (1/ 282). مياومة: من اليوم. مجامعة: من الجمعة . مشاهرة: من الشهر. مسانهة: من السنة.

[2] لا يراد بباطن القرآن هنا ما ذهبت إليه القرامطة الباطنية الذين حرفوا معانيه، وإنما يراد به الفتح الرباني الذي يفتح سبحانه على من يريد من عباده، كالفهم الذي فهمه ابن عباس من سورة النصر. وما سوى ذلك فإنما هو ضلال وانحراف.

[3] النصيحة الكافية الإمام الغزالي 1\18

لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: 68]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2].

وقال الحسن: «نزل القرآن ليتدبر ويعمل به فاتخذوا تلاوته عملا». فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته، من تدبر القرآن وإطالة التأمل وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما،...وبالجملة: تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول اليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه، وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان والطريق الموصلة إليه وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه، فهذه ستة أمور ضرورية للعبد معرفتها ومشاهدتها ومطالعتها..».انتهى.[1]

ولا يحصل التدبر والتأمل إلا لمن كان له حظ وفير من اللغة العربية. وفي هذا يقول العلامة ابن عاشور رحمه الله عن قيمة اللغة العربية وضرورتها لفهم القرآن: «أما العربية فالمراد منها معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم، سواء حصلت تلك المعرفة بالسجية والسليقة، كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم، أم حصلت بالتلقي والتعلم، كالمعرفة الحاصلة للمولدين الذين شافهوا بقية العرب ومارسوهم، والمولدين الذين درسوا علوم اللسان ودونوها.

إن القرآن كلام عربي، فكانت قواعد العربية طريقا لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم لمن ليس بعربي بالسليقة، ونعني بقواعد العربية مجموع علوم

---

[1] مدارج السالكين (1/ 445، 446)

اللسان العربي، وهي: متن اللغة، والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان. ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم، ويدخل في ذلك ما يجري مجرى التمثيل والاستئناس للتفسير من أفهام أهل اللسان أنفسهم لمعاني آيات غير واضحة الدلالة عند المولدين، قال في «الكشاف»: «ومن حق مفسر كتاب الله الباهر، وكلامه المعجز أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها، وما وقع به التحدي سليما من القادح، فإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل»[1].

ولعلمَي البيان والمعاني مزيد اختصاص بعلم التفسير، لأنهما وسيلة لإظهار خصائص البلاغة القرآنية، وما تشتمل عليه الآيات من تفاصيل المعاني، وإظهار وجه الإعجاز. ولذلك كان هذان العلمان يسميان في القديم علم دلائل الإعجاز. قال في «الكشاف»: «علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن برز على أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علما البيان والمعاني..»[2].انتهى من التحرير.[3]

---

[1] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري(1/ 68)

[2] المصدر نفسه: (المقدمة/ 2)

[3] انظر التحرير والتنوير (1/ 18. 19)

الأدب الخامس

التفهم

مستفهما لآيِهِ مستوضحا　　لِما خفا والشيخَ كُن مستفصحا

هذا الأدب الخامس، وهو: التفهم.

وتفهُّمُ الشيء: معناه طلب فهمه. واختيار بناء التفعُّل في « التفهُّم « لحصوله بعد مهلة وتدرج، كالتبصُّر والتعلُّم[1].

فالتفهم . إذا . هو كما قال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله: « أن يستوضح من كل آية ما يليق بها، إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عز وجل. وذكر أفعاله. وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام. وذكر أحوال المكذبين لهم، وأنهم كيف أهلكوا، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار.

أما صفات الله عز وجل فكقوله تعالى:(**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**) [الشورى: 11]. وكقوله تعالى:(**الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ**) [الحشر: 23]. فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها، فتحتها معان مدفونة لا تنكشف إلا للموفقين. وإليه أشار علي رضي الله عنه لما سأله أبو جحيفة رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ فأجابه بقوله:

[1] مدارج السالكين لابن القيم(1/ 440)

«لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا في القرآن ..» الحديث[1].

فكن ـ أيها القارئ ـ حريصاً على طلب ذلك الفهم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن»[2]. وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله عز وجل وصفاته، إذ لم يدرك أكثر الخلق منها إلا أموراً لائقة بأفهامهم، ولم يعثروا على أغوارها.

وأما أفعاله تعالى: فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها. فافهم منها صفات الله عز وجل، إذ الفعل يدل على الفاعل فتدل عظمته على عظمته. فينبغي لك أن تشهد في العقل الفاعل دون الفعل، فمن عرف الحق رآه في كل شيء ـ أي رأى أثر الخالق سبحانه وتعالى ـ ورأى المخلوقات كلها أدلة على بارئها وفاطرها، وعلى وحدانيته، وأنه لا تنبغي الربوبية والإلهية لها بوجه ما، بل لا تنبغي إلا لمن فطرها وبرأها كما قال القائل:

تأمل سطور الكائنات فإنها إلى الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها ألا كل شيء ما خلا الله باطل

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه في ثلاثة أبواب: باب فكاك الأسير، وباب العاقلة، وباب لا يقتل المسلم بالكافر.

[2] المعجم الكبير للطبراني – (8 / 43) شعب الإيمان للبيهقي – (4 / 470) قال شمر: تَثْوِيرُ القرآن: قراءتُه ومفاتشة العلماء به في تفسيره ومعانيه». انتهى. وثورتُ الأمر بحثتُ فيه، وثور القرآن بحث عن معانيه وعن علمه (انظر لسان العرب – (4 / 108)

وقال آخر:

فوا عجبا كيف يعصى الإله أم كيف يجحده جاحد
لله في كل تحريكـــة وتسكينة أبدا شاهـد
وفي كل شيء له آيـــة تدل على أنه واحـد ![1].

إذ كل شيء فهو منه . سبحانه . وإليه وبه وله، فهو الكل على التحقيق. ومن لا يراه في كل ما يراه فكأنه ما عرفه[2]. ومن عرفه عرف أن كل شيء ما خلا الله باطل، وأن كل شيء هالك إلا وجهه؛ لا أنه سيبطل في ثاني الحال؛ بل هو الآن باطل إن اعتبر ذاته من حيث هو، إلا أن يعتبر وجوده من حيث إنه موجود بالله عز وجل وبقدرته فيكون له بطريق التبعية ثبات، وبطريق الاستقلال بطلان محض. وهذا مبدأ من مبادئ علم المكاشفة[3]: ولهذا ينبغي إذا قرأ التالي قوله عز وجل:(**أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ**) ... (**أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ**)... (**أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ**) [الواقعة: 63 – 71]. فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرث

---

[1] ما بين عارضتين مستفاد من مفتاح السعادة للإمام ابن القيم رحمه الله: 2\191

[2] هذه العبارة: «من لا يراه في كل ما يراه فكأنه ما عرفه» تحتاج إلى شرح، إذ لا يراد بها أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق فهذا تعطيل للصانع وجحود له وهو جامع لكل شرك، وهو قول الاتحادية القائلين بوحدة الوجود، وإنما معناها: من لم ير ويشهد لله تعالى بالربوبية والقيومية فيما يراه من حسن التدبير والخلق والرزق والعطاء والمنع والضر والنفع ..إلخ. فكأنه ما عرف ربه جل وعلا. ولذلك قال: ومن عرفه عرف أن كل شيء ما خلا الله باطل..إلخ.

[3] المكاشفة اصطلاح صوفي، ولا مشاحاة في الاصطلاحات إذا لم تخالف أصول الدين، ولذلك قال ابن القيم رحمه الله: «المكاشفة والمشاهدة قوة اليقين ومزيد العلم وارتفاع الحجب المانعة من ذلك لا نفس معاينة الحقيقة..». مدارج الساكين (267268/3)

والمني، بل يتأمل في المني وهو نطفة متشابهة الأجزاء، ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والتكذيب والمجادلة كما قال تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ**﴾ [يس: 77]. فيتأمل هذه العجائب ليترقى منها إلى عجب العجائب، وهو الصفة التي منها صدرت هذه الأعاجيب فلا يزال ينظر إلى الصنعة فيرى الصانع. تبارك الله أحسن الخالقين.

وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام: فإذا سمعت منها كيف كُذبوا وضُربوا وقُتل بعضهم. فافهم منه صفة الاستغناء لله عز وجل عن الرسل والمرسل إليهم، وأنه لو أهلك جميعهم لم يؤثر في ملكه شيئاً. وإذا سمعت نصرتهم في آخر الأمر فافهم قدرة الله عز وجل وإرادته لنصرة الحق.

وأما أحوال المكذبين؛ كعاد وثمود وما جرى عليهم، فليكن فهمك منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته، وليكن حظك منه الاعتبار في نفسك، وأنك إن غفلت وأسأت الأدب واغتررت بما أُمهلت فربما تدركك النقمة وتنفذ فيك القضية.

وكذلك إذا سمعت وصف الجنة والنار وسائر ما في القرآن، فلا يمكنك استقصاء ما يُفهم منه، لأن ذلك لا نهاية له، وإنما لكل عبد بقدر رزقه، فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين. ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ**

قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: 109]. ولذلك قال علي رضي الله عنه: «لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب»[1].

يقول الغزالي متمما: «فالغرض مما ذكرناه التنبيه على طريق التفهيم لينفتح بابه، فأما الاستقصاء فلا مطمع فيه. ومن لم يكن له فهم ما في القرآن ـ ولو في أدنى الدرجات ـ دخل في قوله تعالى:﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾** [محمد: 16]. والطابع هي الموانع التي سنذكرها في موانع الفهم».ا.هـ من الإحياء بتصرف.[2]

قال بعض العارفين: «لا يكون المريد مريداً حتى يجد في القرآن كل ما يريد ويعرف منه النقصان والمزيد ويستغني بالمولى عن العبيد».[3]

والقصد: أن هذا الأدب، الذي هو التفهم ـ طلب الفهم ـ مطلوب من القارئ، لأن فهم القرآن ينقسم إلى أربعة أقسام. فقد روى الإمام الطبري بسنده عن ابن

---

[1] قوت القلوب (1/ 92)

[2] إحياء علوم الدين (1/ 284283) بتصرف.

[3] قوت القلوب (1/ 105)

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عباس أنه قال: «التفسيرُ على أربعةِ أوجهٍ: وجهٌ تعرفه العربُ من كلامها، وتفسير لاَ يُعذر أحدٌ بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لاَ يعلمه إلا الله تعالى»[1].

قال الإمام الزركشي رحمه الله: « وهذا تقسيم صحيح، فأما الذي تعرفه العرب فهو الذي يرجع فيه إلى لسانهم وذلك شأن اللغة والإعراب.

فأما اللغة: فعلى المفسر معرفة معانيها ومسميات أسمائها، ولا يلزم ذلك القارئ. ثم إن كان ما تتضمنه ألفاظها يوجب العمل دون العلم كفى فيه خبر الواحد والاثنين والاستشهاد بالبيت والبيتين، وإن كان مما يوجب العلم لم يكف ذلك، بل لابد أن يستفيض ذلك اللفظ وتكثر شواهده من الشعر[2]، وأما الإعراب فما كان اختلافه محيلا للمعنى وجب على المفسر والقارئ تعلمه، ليتوصل المفسر إلى معرفة الحكم، وليسلم القارئ من اللحن. وإن لم يكن محيلا للمعنى وجب تعلمه على القارئ ليسلم من اللحن، ولا يجب على المفسر ليتوصل إلى المقصود دونه، على أن جهله نقص في حق الجميع.

إذا تقرر ذلك، فما كان من التفسير راجعا إلى هذا القسم فسبيل المفسر التوقف فيه على ما ورد في لسان العرب، وليس لغير العالم بحقائق اللغة ومفهوماتها

---

[1] رواه الطبري في جامع البيان (1/ 75). والفريابي في القدر (ص: 264). والطبراني في مسند الشاميين (2/ 302).

[2] مسألة خبر الآحاد وهل يوجب العلم أم لا، والفرق بينه وبين المتواتر، فيه مباحث طويلة في أصول الفقه، ليس هنا محل ذكره. راجع إن شئت: العدة في أصول الفقه لابن الفراء (2/ 504)

تفسير شئ من الكتاب العزيز، ولا يكفي في حقه تعلم اليسير منها. فقد يكون اللفظ مشتركا وهو يعلم أحد المعنيين.

الثاني: ما لا يعذر أحد بجهله وهو ما تتبادر الأفهام إلى معرفة معناه من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد، وكل لفظ أفاد معنى واحدا جليا لا سواه يعلم أنه مراد الله تعالى، فهذا القسم لا يختلف حكمه ولا يلتبس تأويله، إذ كل أحد يدرك معنى التوحيد من قوله تعالى:(**فاعلم أنه لا إله إلا الله**) وأنه: لا شريك له في إلهيته. وإن لم يعلم أن (لا) موضوعة في اللغة للنفي، وإلا للإثبات. وأن مقتضى هذه الكلمة الحصر. ويعلم كل أحد بالضرورة أن مقتضى قوله تعالى: (**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**) [البقرة: 43]. ونحوها من الأوامر، طلب إدخال ماهية المأمور به في الوجود، وإن لم يعلم أن صيغة «افعل» مقتضاها الترجيح وجوبا أو ندبا. فما كان من هذا القسم لا يقدر أحد يدعي الجهل بمعاني ألفاظه، لأنها معلومة لكل أحد بالضرورة.

الثالث: ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فهو ما يجري مجرى الغيوب نحو الآي المتضمنة قيام الساعة، ونزول الغيث، وما في الأرحام، وتفسير الروح، والحروف المقطعة، وكل متشابه في القرآن عند أهل الحق، فلا مساغ للاجتهاد في تفسيرهن ولا طريق إلى ذلك إلا بالتوقيف من أحد ثلاثة أوجه: إما نص من التنزيل، أو بيان من النبي صلى الله عليه وسلم، أو إجماع الأمة على تأويله. فإذا لم يرد فيه توقيف من هذه الجهات، علمنا أنه مما استأثر الله تعالى بعلمه.

والرابع: ما يرجع إلى اجتهاد العلماء، وهو الذي يغلب عليه إطلاق التأويل، وهو صرف اللفظ إلى ما يؤول إليه، فالمفسر ناقل، والمؤول مستنبط. وذلك

استنباط الأحكام، وبيان المجمل، وتخصيص العموم. وكل لفظ احتمل معنيين فصاعدا فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه، وعلى العلماء اعتماد الشواهد والدلائل، وليس لهم أن يعتمدوا مجرد رأيهم فيه على ما تقدم بيانه، وكل لفظ احتمل معنيين فهو قسمان.....إلخ»[1].

[1] راجع ما جاء في البرهان (2/ 164، 165).

الأدب السادس

موانع الفهم

وحاذرن ما يحجب الفهم وسلْ   عن كُنهها كيما تحيدَ وتَخل

هذا الأدب السادس، وهو التخلي عن حجب الفهم.

والحُجب: جمع حجاب، وهو كل ما يستر. وفي التنزيل:(**وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ**) [الأحزاب: 53]، وقوله تعالى: (**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**) [الشورى: 51]. وقوله تعالى: (**وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ**) [فصلت: 5].

والمراد به هنا: ما يحول بين القارئ وبين الفهم.

واعلم ـ أرشدني الله وإياك ـ : أن عجائب القرآن وعلومه، وغرائبه وفنونه، قد حال بيننا وبين فهمها وتذوق حلاوتها، حجاب الذنوب، وكثرة العيوب، وإلا لأطلعنا ربنا على ما يحير القلوب.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فقد روى أبو نعيم بسنده في حلية الأولياء، عن سفيان بن عيينة قال: قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «لو طهُرت قلوبكم ما شبعت من كلام الله، وما أحب أن يأتي علي يوم ولا ليلة إلا أنظر في كلام الله – يعني في المصحف»[1].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه:»من أراد العلم فَلْيُثَوِّرِ القرآن؛ فإن فيه علم الأولين والآخرين»[2].

وقال أبو يوسف الفولي سمعت إبراهيم بن أدهم يقول:»لقيت عابداً من العباد قيل أنه لا ينام الليل، فقلت له: لم لا تنام؟ فقال لي: منعتني عجائب القرآن أن أنام»[3].

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن القرآن ذو شجون وفنون، وظهور وبطون، لا تنقضي عجائبه، ولا تبلغ غايته، فمن أوغل فيه برفق نجا، ومن أوغل فيه بعنف هوى، أخبار وأمثال، وحلال وحرام، وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، وظهر وبطن، فظهره التلاوة، وبطنه التأويل، فجالسوا به العلماء، وجانبوا به السفهاء [4]«.

---

[1] حلية الأولياء (7 / 300)

[2] سبق تخريجه.

[3] حلية الأولياء – (3 / 360)

[4] ذكره السيوطي في الإتقان (487/2)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقال أسلم بن عبد الملك: صحبت رجلاً شهرين، وما رأيته نائماً بليل ولا نهار، فقلت: ما لك لا تنام؟ قال: «إن عجائب القرآن أطرن نومي، ما أخرج من أُعجوبة إلا وقعت في أخرى».[1]

وروى ابن نصر بسنده من طريق أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن هذا القرآن مأدبة الله، فتعلموا مأدبته ما استطعتم، وإن هذا القرآن هو حبل الله و هو النور المبين و الشفاء النافع، عصمة من تمسك به، و نجاة من تبعه، لا يعوج فيقوم، و لا يزيغ فيستعتب، و لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول بـ (الم) و لكن بألف عشرا و باللام عشرا و بالميم عشرا»[2].

وأخرج الآجري[3] بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لا تنثروه نثر الدقل، ولا تهذوه هذّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة»[4].

---

[1] صفة الصفوة (2 / 34) مواعظ ابن الجوزي (1 / 3)، قلت: وهذه مبالغة في كون الرجل لا ينام بليل ولا نهار، اللهم أن يكون أسلم بن عبد الله لم يره حال نومه.

[2]. كتاب « قيام الليل « (70) لابن نصر المروزي. قال ابن كثير رحمه الله: « يحتمل، والله أعلم، أن يكون وهم في رفع هذا الحديث، وإنما هو من كلام ابن مسعود، ولكن له شاهد من وجه آخر، والله أعلم «. تفسير ابن كثير (1 / 22). وقال الشيخ الألباني رحمه الله:و هذا إسناد لا بأس به في المتابعات، رجاله كلهم ثقات رجال مسلم غير الهجري و اسمه إبراهيم بن مسلم و هو لين الحديث.

[3] هو محمد بن الحسين بن عبد الله، أبو بكر الآجري: فقيه شافعي محدث. توفي سنة 360هـ.

[4] أخلاق أهل القرآن ص5

الحجاب الأول
تكلف مخارِج الحروف

أوّلُها تكلُّفٌ إذا قَرَا

إن أول هذه الحجب، التي تحجب القارئ عن فهم القرآن وتدبره والاهتداء به، تكلُّف النطق بمخارج الحروف. وذلك لأنه أول ما يتعلمه قارئ القرآن في علم التجويد.

واعلم . رحمك الله . أن علم التجويد: هو العلم الذي يعرف منه مخرج كل حرف، وحقه من الصفات اللازمة كالجهر والاستعلاء، ومستحقه من الصفات العارضة كالتفخيم والإخفاء، ثم أقسام الوقف والابتداء، إلى غير ذلك.

وطريق تحصيله رياضة اللسان وكثرة التكرار بعد العرض والسماع بالنطق الصحيح على يد شيخ متقن لقراءة القرآن الكريم.

وأما حكم العمل به: فالوجوب على كل مكلف يقرأ شيئا من القرآن. وأما حكم تعليم هذا العلم: فعلى الوجوب الكفائي[1].

وأشهر مباحثه: مخارج الحروف وصفاتها وأحكامها.

---

[1] الواجب ينقسم إلى قسمين، عيني وكفائي. أما الواجب العيني: فهو ما توجه فيه الطلب إلى كل مكلف، أي طلب الشارع فعله من كل واحد من المكلفين، فلا يكفي فيه قيام البعض دون البعض الآخر.

وأما الواجب الكفائي: هو ما طلب الشارع حصوله من جماعة المكلفين من غير نظر إلى فاعله، لأن مقصود الشارع حصول الفعل فقط، فإذا فعله البعض سقط الإثم عن الباقين، وإذا لم يفعل نهائيًّا أثم الجميع، لتعلق الطلب بالكل. (روضة الناظر وجنة المناظر (1/ 122) (1/ 123) بتصرف.

وأشهر كتبه قديما وحديثا: الخاقانية لموسى بن عبيد الله (ت 325هـ)، والرعاية لمكي بن أبي طالب (ت 437هـ). والتمهيد، وكذا الجزرية كلاهما لمحمد بن محمد بن الجزرى (ت 833هـ). ونهاية القول المفيد للعلامة محمد مكي نصر،(ت:1325 هـ). وهداية القارئ لعبد الفتاح عجمى المرصفى (ت 1409هـ).

وقد كثرت الأدلة والفتاوى ونصوص العلماء على وجوبه، منها قوله تعالى: (**ورتل القرآن ترتيلا**) المزمل:4. فهذا أمر، والأمر يفيد الوجوب.

ويروى أن علي رضي الله عنه قال: «الترتيل هو تجويد الحروف، ومعرفة الابتداء والوقوف «[1].

وقال تعالى: (**قرآنا عربيا غير ذي عوج**) الزمر:28. فمن أخل بتصحيح قراءته له، فقد ارتكب محظورا. ولذا قال الإمام ابن الجزري رحمه الله:

والأخذ بالتجويد حتم لازم   من لم يجود القرآن آثم.

وعلم التجويد وسيلة وليس غاية، والمبالغة في تكلف النطق بالحرف مخل بهذا الفن، وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام ابن الجزري رحمه الله في منظومته، إذ قال في تعريف التجويد:

وَهُوَ إِعطْاءُ الْحُرُوفِ حَقَّهَا   مِنْ صِفَةٍ لَهَا وَمُستَحَقَّهَا

[1] ذكره الإمام السيوطي في الإتقان في علوم القرآن (1/ 282) بغير سند.

وَرَدُّ كُلِّ وَاحِدٍ لأَصلِهِ وَاللَّفْظُ فِي نَظِيرِهِ كَمِثلِـهِ
مُكَمِّلاً مِنْ غَيْرِ مَا تَكَلُّـفِ بِاللُّطْفِ فِي النُّطْقِ بِلاَ تَعَسُّف.

قال الإمام السيوطي رحمه الله: « قال القراء: التجويد حلية القراءة، وهو إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها، ورد الحرف إلى مخرجه وأصله، وتلطيف النطق به على كمال هيئته من غير إسراف ولا تعسف، ولا إفراط ولا تكلف، وإلى ذلك أشار صلى الله عليه وسلم بقوله: « من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»[1]. يعني ابن مسعود. وكان رضي الله عنه قد أعطي حظاً عظيماً في تجويد القرآن».ا.هـ[2].

وقال الإمام الغزالي رحمه الله: «الفرقة الثالثة: وفرقة أخرى غلب عليها الوسوسة فى إخراج حروف الفاتحة.. وسائر الأذكار من مخارجها.. فلا تزال تحتاط في التشديدات.. والفرق بين الضاد والظاء.. لا يهمه غير ذلك، ولا يتفكر فى أسرار الفاتحة ولا في معانيها.. ولم يعلم أنه لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا ما جرت به عادتهم فى الكلام..

وهذا غرور عظيم.. ومثالهم مثال من حمل رسالة إلى مجلس السلطان، وأُمر أن يؤديها على وجهها.. فأخذ يؤدي الرسالة ويتأنق فى مخارج الحروف ويكررها

---

[1] أخرجه ابن ماجة، وأحمد ، صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (5/ 379)

[2] الإتقان في علوم القرآن (1/ 346)

ويعيدها مرة بعد أخرى، وهو مع ذلك غافل عن مقصود الرسالة.. ومراعاة حرمة المجلس.. وبهذا يرد إلى دار المجانين، ويحكم عليه بفقد العقل».انتهى.[1]

ومن صور التكلف: شدة رفع الصوت، مما يضطر معه القارئ لوضع إصبعيه في أذنيه. قال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله في (بدع القراء القديمة والمعاصرة: ص: 7): «ومما يُنهى عنه (التَّقلِيس) بالقراءة، وهو رفع الصوت[2]، ومنه في وصف الإمام الشافعي رحمه الله تعالى لأبي يوسف قوله: (كان أبو يوسف: قلاساً) أي يرفع صوته بالقراءة، وهذا جر إلى إحداث وضع اليدين على الأذنين عند القراءة».ا.هـ

فأول حجاب يمنع القارئ من فهم القرآن، هو: انصراف همه إلى إتقان مخارج الحروف. ولذلك قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «وأما في «باب فهم القرآن» فهو دائم التفكر في معانيه، والتدبر لألفاظه، واستغنائه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس. وإذا سمع شيئا من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن، فإن شهد له بالتزكية قبله، وإلا رده. وإن لم يشهد له بقبول ولا رد وقفه، وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه.

ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن، إما بالوسوسة في خروج حروفه وترقيقها وتفخيمها وإمالتها، والنطق بالمد الطويل والقصير والمتوسط وغير ذلك. فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب

---

[1] كتاب أصناف المغرورين.(ص: 55.54)

[2] انظر تاج العروس (16\396) قال أحمد بن الحريش: التَّقْلِيس : رَفعُ الصَّوْتِ بالدُّعاءِ والقِرَاءةِ والغِناءِ.

من كلامه. وكذلك شغل النطق بـ (أأنذرتهم) وضم الميم من (عليهم) ووصلها بالواو، وكسر الهاء أو ضمها ونحو ذلك.

وكذلك مراعاة النغم وتحسين الصوت. وكذلك تتبع وجوه الإعراب واستخراج التأويلات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان» انتهى[1].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: «ومن ذلك: الوسوسة في مخارج الحروف والتنطع فيها. ونحن نذكر ما ذكره العلماء بألفاظهم:

قال أبو الفرج بن الجوزي: «قد لبس إبليس على بعض المصلين فى مخارج الحروف، فتراه يقول: الحمد، الحمد. فيخرج بإعادة الكلمة عن قانون أدب الصلاة. وتارة يلبس عليه فى تحقيق التشديد في إخراج ضاد «المغضوب». قال: «ولقد رأيت من يخرج بصاقه مع إخراج الضاد لقوة تشديده. والمراد تحقيق الحرف فحسب. وإبليس يخرج هؤلاء بالزيادة عن حد التحقيق، ويشغلهم بالمبالغة في الحروف عن فهم التلاوة. وكل هذه الوساوس من إبليس»[2]. إلى أن قال: «والمقصود. أن الأئمة كرهوا التنطع والغلو في النطق بالحرف.

ومن تأمل هدى رسول الله صلى الله تعالى وآله وسلم، وإقراره أهل كل لسان على قراءتهم تبين له أن التنطع والتشدق والوسوسة في إخراج الحروف ليس من سنته»[3].

---

[1] مجموع الفتاوى (16 / 50)

[2] تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص: 126)

[3] إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (1/ 160. 162)

وقال الإمام الغزالي رحمه الله: «إن أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن. . . وحُجب الفهم أربعة؛ أولها: أن يكون الهم منصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عز وجل فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه. فهذا يكون تأمله مقصوراً على مخارج الحروف فأنى تنكشف له المعاني؟ وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعاً لمثل هذا التلبيس»[1].

واعلم رحمك الله، أن آفة التكلف هي التي أحدثت بدعة التطريب والتلحين والتحزين والترعيد والترقيص، وقد اشتد نكير العلماء عمن يقرأ بلحون أهل الفسق، والفجور. ولابن الكيال الدمشقي المتوفي سنة 929هـ - رسالة باسم: (الأنجم الزواهر، في تحريم القراءة بلحون أهل الفسق والكبائر).

قال العلامة بكر أبو زيد رحمه الله: «التلحين في القراءة، تلحين الغناء والشّعر. وهو مسقط للعدالة، ومن أسباب رد الشهادة، قَضَاءً. وكان أول حدوث هذه البدعة في القرن الرابع على أيدي الموالي. ومن أغلظ البدع في هذا، تلكم الدعوة الإلحادية إلى قراءة القرآن، على إيقاعات الأغاني، مصحوبة بالآلات والمزامير.[2]
قال الله تعالى:(**إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** *

---

[1] إحياء علوم الدين 1\284

[2] تلبيس إبليس ص: 113. 114

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فصلت: 42.40

وأما قراءة التطريب بترديد الأصوات، وكثرة الترجيعات. فقد بحث ابن القيم رحمه الله تعالى هذه المسألة بحثاً مستفيضاً، وبعد أن ذكر أدلة الفريقين المانعين والمجيزين، قال رحمه الله تعالى:(وفصل النزاع، أن يقال: التطريبُ والتغنِّي على وجهين، أحدهما: ما اقتضته الطبيعة، وسمحت به من غير تكلُّف ولا تمرين ولا تعليم، بل إذا خُلّي وطبعه، واسترسلت طبيعتُه، جاءت بذلك التطريب والتلحين، فذلك جائز. وإن أعان طبيعتَه بفضلِ تزيين وتحسين، كما قال أبو موسى الأشعري للنبي صلى الله عليه وسلم: «لو علمتُ أنَّك تَسْمَعُ لحَبَّرتهُ لكَ تَحبِيراً»[1]. والحزين هو: من هاجه الطربُ، والحبُّ والشوقُ، لا يملك من نفسه دفعَ التَحزين والتطريب في القراءة، ولكن النفوسَ تقبلُه وتستحليه لموافقته الطبع، وعدم التكلف والتصنع فيه، فهو مطبوع لا متطبّع، وكَلفٌ لا متكلِّف، فهذا هو الذي يتأثر به التالي والسامعُ، وعلى هذا الوجه تُحمل أدلة أرباب هذا القول كلها .

الوجه الثاني: ما كان مِن ذلك صناعةً من الصنائع، وليس في الطبع السماحةُ به، بل لا يحصُل إلا بتكلُّف وتصنُّع وتمرُّن، كما يتعلم أصوات الغِناء بأنواع الألحان البسيطة، والمركبة على إيقاعات مخصوصة، وأوزانٍ مخترعة، لا تحصل إلا بالتعلُّم والتكلف، فهذه هي التي كرهها السلفُ، وعابوها، وذمُّوها، ومنعوا القراءَة بها، وأنكروا على من قرأ بها. وأدلة أرباب هذا القول إنما تتناول هذا الوجه، وبهذا

[1] رواه النسائي في السنن الكبرى، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (7/ 1483)

التفصيل يزول الاشتباهُ، ويتبين الصوابُ من غيره وكلُّ من له علم بأحوال السلف، يعلم قطعاً أنهم بُرآء من القراءة بألحان الموسيقى المتكلفة، التي هي إيقاعات وحركات موزونة معدودة محدودة، وأنهم أتقى لله من أن يقرؤوا بها، ويُسوِّغوها، ويعلم قطعاً أنهم كانوا يقرؤون بالتحزين والتطريب، ويحسِّنون أصواتهم بالقرآن، ويقرؤونه بِشجىً تارة، وبِطَرَبٍ تارة، وبِشوق تارة، وهذا أمر مركوز في الطباع تقاضيه، ولم ينه عنه الشارع مع شدة تقاضي الطباع له، بل أرشد إليه وندب إليه، وأخبر عن استماع الله لمن قرأ به، وقال: «لَيسَ مِنَّا مَن لَمْ يَتَغَنَّ بِالقرآنِ»[1]. وفيه وجهان: أحدهما: أنه إخبار بالواقع الذي كلُّنا نفعله، والثاني: أنه نفي لهدي من لم يفعله عن هديه وطريقته صلى الله عليه وسلم». انتهى[2].

وتأمل قوله: «من غير تكلف ولا تمرين ولا تعليم». فإنه فقه عظيم له دلالاته، فرحم الله ابن القيم ما أدق نظره وفقهه» . انتهى كلام الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله[3].

وللعلامة ابن خلدون كلام قيم في الكلام عن التلحين في القرآن، قال رحمه الله: «وكثير من القراء بهذه المثابة، يقرأون القرآن، فيجيدون في تلاحين أصواتهم كأنها المزامير فيطربون بحسن مساقهم وتناسب نغماتهم. ومن هذا التناسب ما

---

[1] صحيح البخاري (9/ 154)

[2] زاد المعاد 1\475 إلى 476

[3] الشيخ بكر أبو زيد كتاب: بدع القراء القديمة والمعاصرة ص: 7

يحدث بالتركيب، وليس كل الناس يستوي في معرفته ولا كل الطبائع توافق صاحبها في العمل به إذا علم.

وهذا هو التلحين الذي يتكفل به علم الموسيقى، كما نشرحه بعد عند ذكر العلوم. وقد أنكر مالك رحمه الله تعالى القراءة بالتلحين، وأجازها الشافعي رضي الله تعالى عنه. وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعي، فإنه لا ينبغي أن يختلف في حظره، إذ صناعة الغناء مباينة للقرآن بكل وجه، لأن القراءة والأداء تحتاج إلى مقدار من الصوت لتعيين أداء الحروف من حيث اتباع الحركات في مواضعها، ومقدار المد عند من يطلقة أو يقصره، وأمثال ذلك. والتلحين أيضاً يتعين له مقدار من الصوت لا يتم إلا به من أجل التناسب الذي قلناه في حقيقة التلحين. فاعتبار أحدهما قد يخل بالآخر إذا تعارضا. وتقديم التلاوة متعين فراراً من تغيير الرواية المنقولة في القرآن، فلا يمكن اجتماع التلحين والأداء المعتبر في القرآن بوجه. وإنما المراد عن اختلافهم التلحين البسيط[1] الذي يهتدي إليه صاحب المضمار بطبعه كما قدمناه، فيردد أصواته ترديداً على نسب يدركها العالم بالغناء وغيره، ولا ينبغي ذلك بوجه كما قاله مالك. هذا هو محل الخلاف.

والظاهر تنزيه القرآن عن هذا كله كما ذهب إليه الإمام رحمه الله تعالى، لأن القرآن هو محل خشوع بذكر الموت وما بعده، وليس مقام الْتِذاذ بإدراك الحسن من الأصوات. وهكذا كانت قراءة الصحابة رضي الله عنهم كما في أخبارهم. وأما

---

[1] البسيط: معناه الواسع. وهذا اللفظ يستعمله الكثير لمعنى اليسير والسهل الهين، وهو غلط. لأن بسيط من البسط، وهو السعة. وهو نقيض القبض. والصواب أن يقال: اليسير أو السهل.

قوله صلى الله عليه وسلم: « لقد أوتي مزماراً من مزامير آل داود»[1]، فليس المراد به الترديد والتلحين، إنما معناه حسن الصوت وأداء القراءة والإبانة في مخارج الحروف والنطق بها».[2]

قال مقيده: أصل هذه البلوى هو: التكلف، ومعلوم أننا نهينا عنه في كل شيء، كما قال تعالى لنبيه:(**قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ**) [ص: 86]. وفي صحيح البخاري عن أنس قال كنا عند عمر فقال: «نهينا عن التكلف». و قال ابن مسعود رضي الله عنه والحسن البصري رحمه الله: « من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، وأقومها هديا، وأحسنها حالا، قوما اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم و إقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم»[3].

---

[1] رواه أحمد وابن حبان وغيرهما، انظر صحيح الجامع الصغير وزيادته للشيخ الألباني(2/ 911)

[2] تاريخ ابن خلدون : 1\ 425، 426 ومقدمة ابن خلدون 2\99

[3] أخرجه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم « (2 / 97) بإسنادين عنه ، وعزاه ابن القيم (4 / 179) للإمام أحمد – و لعله يعني في «الزهد « – عن ابن مسعود . و انظر « المشكاة « (193)

الحجاب الثاني

تقليد مشاهير القراء

ثانيهِ تقليدُ الذي قد أبهرا[1]

وهذا الحجاب الثاني، وهو تقليد مشاهير القراء.

والتقليد لغة: وضع الشيء في العنق محيطاً به كالقلادة.

وعرفه الجرجاني بقوله: «التقليد: عبارة عن اتباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل، معتقدًا للحقيقة فيه، من غير نظر وتأمل في الدليل، كأن هذا المتبع جعل قول الغير أو فعله قلادةً في عنقه.

التقليد: عبارةٌ عن قبول قول الغير بلا حجة ولا دليل».[2]

ومعناه في الشرع: الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه[3].

والمراد به هنا: محاكاة قراءة قارئ مشهور، قد اشتهر عند الناس، فصار معروفا باسمه، وأدائه. سواء كانت شهرته عالمية، أو إقليمية، أو ما شابه ذلك.

فتقليد مشاهير القراء، حجاب ثاني لفهم القرآن، وهذه طامة ظهرت في هذا العصر، الذي تيسرت فيه وسائل الإشهار، خاصة في صلاة التراويح، وبعض المناسبات. ولئن كان بعض المستمعين لهؤلاء المقلدة، قد يتأثر بتلك القراءة، ويزداد

---

[1] أبهر: برع بصوته في القراءة والتجويد فأعجب المستمعون به.

[2] التعريفات (ص: 64)

[3] قاله أبو عبد الله بن خويز منداد البصري المالكي رحمه الله، انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين (2/ 302)

خشوعا، فالإشفاق على المقلد، والتحذير له، إذ لو سئل: ما تريد بهذا التقليد؟ أو لِمَ تقلد فلانا؟ فإما أن يقول: «أريد أن يتأثر الناس بكلام الله تعالى»، أو «أحب طريقة أداء هذا القارئ المقلَّد، لأنها مؤثرة». أو يضمر في نفسه: «أحب أن يعجب الناس بصوتي، فيقدموني إماما لهم».

فإن كان الجواب الأول أو الثاني، فقد يوجد له مخرج يرجع إلى حسن نيته. أما إن كان الجواب الأخير، فذاك ما يُخشى عليه منه. فقد ورد في الحديث: « بادروا بالأعمال خصالا ستا » وذكر منها: «ونشوا يتخذون القرآن مزامير يقدمون الرجل ليس بأفقههم ولا أعلمهم ما يقدمونه إلا ليغنيهم». سبق ذكره.

وقال صلى الله عليه وسلم: «اقرؤوا القرآن و ابتغوا به الله تعالى من قبل أن يأتي قوم يقيمونه إقامة القدح يتعجلونه و لا يتأجلونه»[1].

قال العُزيزي السجستاني رحمه الله: أي اقرؤوه على الكيفية التي يسهل على ألسنتكم النطق بها مع اختلاف ألسنتكم فصاحة ولثغة ولُكْنةً[2] من غير تكلف ولا مشقة في مخارج الحروف، ولا مبالغة ولا إفراط في المد والهمز والإشباع، فقد كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين له سهلة.

«من قبل أن يأتي قوم يقيمونه إقامة القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه». أي يطلبون بقراءته العاجلة أي عرض الدنيا والرفعة فيها ولا يلتفتون إلى الأجر في

---

[1] رواه أحمد وأبو داود من حديث جابر. وحسنه الألباني صحيح الجامع الصغير وزيادته (1/ 258) انظر السلسلة الصحيحة 259.

[2] يقال: رجل ألكن، وقوم لكنٌ، وفي لسانه لكنة: أي عيّ

الدار الآخرة، وهذا من معجزاته صلى الله عليه وسلم فإنه إخبار عن غيب قبل مجيئه».[1]

ونحن لا ننكر تقليد الطالب المبتدئ لشيخه، فهذا أمر بديهي، إذ كل مبتدئ في علم التجويد إلا ويبدأ بالتعتعة، ثم التقليد. لكنه بعد ذلك لابد أن يُبدع ويستقل بأدائه الشخصي على قدر المستطاع.

وقد أوضح الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله هذا بقوله: «لا يُنكَر تلاقي الأصوات حتى لو لم يلق أحد المتشابهين الآخر أو لم يسمعه، ولا يُنكَر أن التلميذ لشدة محبته لشيخه قد يتأثر به في الأداء بلا تكلف، وإن كان هذا إنما يكون في ضِعَافِ التلاميذ. فانحصر البحث في القارئ يتكلف تقليد صوت قارئ آخر.

فأقول: الناظر في طبقات القراء، وغيرهم من العلماء، يرى في حلية بعضهم أنه كان حسن الصوت في قراءة القرآن الكريم. ومنهم: عاصم بن أبي النُّجود، كان إذا قرأ كأنما في حنجرته جَلاَجِل[2]. وأعلى من ذلك في حلية الصحابة رضي الله عنهم، فهذا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قال له النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع قراءته: «لقد أُعطيت مزماراً من مزامير آل داود» متفق عليه . واستمع النبي صلى الله عليه وسلم إلى قراءة سالم مولى أبي حذيفة . وكان حسن الصوت .

---

[1] مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح أبو الحسن المباركفوري (7/ 291)

[2] سير أعلام النبلاء (5/ 257)

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا» رواه ابن ماجه بسند جَيِّد قاله ابن كثير في فضائل القرآن:ص: 115.[1]

وأعلى من ذلك وأَجلُّ، قراءة نبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد كانت قراءته مفسرة، حرفا حرفاً، وكانت مَدّاً، وكان صلى الله عليه وسلم يُرَجِّعُ أحياناً، وكان صلى الله عليه وسلم حسن الوجه، حسن الصوت، بل من سمات أنبياء الله ورسله: حُسن الصوت لكمال خَلْقِهم، وتمام خشيتهم لربهم. ومنها: أن أمير المؤمنين أبا بكر رضي الله عنه وصفته ابنته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لما اختاره النبي صلى الله عليه وسلم لإمامة الناس في الصلاة قالت: «إن أبا بكر رجل أَسِيف[2] متى يقم مقامك رَقَّ» أي: يتمالكه الخشوع فيجهش بالبكاء، رضي الله عنه وأرضاه. ومع هذا فإن الناظر في أخبار التحلي بهذه النعمة، التي أنعم الله بها على من شاء من عباده «حُسْن الصوت بالقراءة» لا يرى حرفاً واحداً في تسنن الصحابة رضي الله عنهم فمن بعدهم بمحاكاة حَسَن الصوت في صوته بالقرآن، ولو كان ذلك واقعاً لنُقل، ولو كان لصار أَوْلَى من يُحاكى في صوته، هو أفضل من قرأ القرآن، نبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم . ولتواطأ على ذلك قراء الأمة، من الصحابة فمن بعدهم، وتوارثوه كافة عن كافة.

[1] قلت الحديث رواه ابن ماجه وصححه الألباني، وفيه أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: أبطأت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة بعد العشاء، ثم جئت فقال: أين كنت؟ قلت: كنت أستمع قراءة رجل من أصحابك لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد. قالت: فقام وقمت معه حتى استمع له ثم التفت إلي فقال: هذا سالم مولى أبي حذيفة الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا .

[2] أسيف: أي سريع الحزن والبكاء. (شرح صحيح البخاري لابن بطال (2/ 290)

وهذا العبد القانت الصحابي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، مع شدة تتبعه، وقوفه الأثر، وآثار رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحاكيه في قراءته، أو في شيء من أموره الجبلِّية صلى الله عليه وسلم. وهؤلاء القراء من الصحابة رضي الله عنهم وهم كُثر لا نرى عنهم حرفاً واحداً في ذلك.

وعن معاوية بن قرة، عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنهم قال: «قرأ النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة، سورة الفتح، فَرَجَّع فيها». قال معاوية: «لو شئت أن أحكي لكم قراءة النبي صلى الله عليه وسلم لفعلت».[1] وفي رواية الترمذي: وقال معاوية بن قرة: لولا أن يجتمع الناس علي لأخذت لكم في ذلك الصوت، أو قال: «اللَّحن» انتهى. و(اللحن) هو: الترجيع. ويدل على أن المراد الترجيع، وروده مصرحاً به في رواية البخاري في (المغازي) من صحيحه بلفظ: «لولا أن يجتمع الناس حولي لرجَّعت كما يرجِّع» فالمحاكاة في (خصوص الترجيع)، فهذا يعني (الأداء)، وفرق بين حكاية الصوت فهذا لم يقع، وبين حكاية (الأداء والقراءة) وهذا أمر مطلوب بأن يقرأ العبد القرآن مؤدياً له على وفق قواعد القراءة، وضوابطها الشرعية، ومن غير إخلال بغلو أو تفريط ولهذا قال النبي صلي الله عليه وسلم: «من أراد أن يقرأ القرآن رطباً» الحديث[2]. ويدل أيضا على أن المراد

[1] أخرجه البخاري في (التفسير) من (صحيحه) برقم / 4835، وفي مواضع أخر منه، في (المغازي برقم / 4281) وفي (فضائل القرآن برقم / 5047) وفي (التوحيد برقم / 7540) الحديث أخرجه جماعة منهم: مسلم، وأبو داود، والحاكم في (الإكليل)، وابن الجعد، وأبو عبيدة في (فضائل القرآن) والترمذي في (الشمائل) والإسماعيلي في (مستخرجه).

[2] مصنف ابن أبي شيبة (6/ 139)، مسند أحمد (1/ 309)

(خصوص الترجيع) أن النبي صلى الله عليه وسلم نزلت عليه هذه الآيات، وهو على راحلته في (غزوة الفتح) وكان ترجيعه صلى الله عليه وسلم آآآ، ثلاث مرات.

قال الحافظ ابن حجر: «قال القرطبي: « يحتمل أن يكون حكاية صوته عند هز الراحلة كما يعتري رافع صوته إذا كان راكباً، من انضغاط صوته، وتقطيعه لأجل هز المركوب، وبالله التوفيق». انتهى[1]. أي: فهذه واقعة عين لا عموم لها.

على أن معاوية بن قرة رضي الله عنه أراد أن يفعل لكنه لم يفعل، خشية أن يجتمع عليه الناس للاستماع[2]. وهذا واضح الدلالة على أن محاكاة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم في صوته غير معهودة بين الصحابة رضي الله عنهم، إذ لو كانت معهودة لما خشي ذلك، وهو رضي الله عنه لم يفعل، فبقي الأمر على عدم التقليد، وأنه لم يكن من هدي الصحابة رضي الله عنهم. وفيمن بعدهم تتبعتُ كتب السير، والتراجم، ما أمكن فلم أر تقليد الصوت لدى القراء، عملاً موروثاً، يستعذب القارئ صوت قارئ آخر، فيقلده وهو واقف بين يدي ربه في المحراب، ليحرك النفوس بصوت غيره، ويتلذذ السامعون بحسن أدائه فيه. «. انتهى من بدع القراء.[3]

---

[1] فتح الباري لابن حجر (13/ 515)

[2] انظر إلى دقيق ورع الصحابة رضي الله عنهم في البعد عن مواطن الرياء، والشهرة، ووازن بين هذا وبين ما يفعله (مجوّدة) عصرنا من تكلف التقليد، وازدحام الناس على سماعه .

[3] بدع القراء القديمة والمعاصرة ص: 13 إلى 15

وقال أيضا رحمه الله: « إذا كان الحال كذلك: فاعلم أنه في عصرنا بدت ظاهرة عجيبة، لدى بعض القراء إذ أخذوا في التقليد والمحاكاة على سبيل الإعجاب والتلذذ، وتلقنه الطلاب وهم في دَوْر التلقي، ثم سرت هذه العادة فَتَكَوَّن منها هذه الظاهرة (ظاهرة المحاكاة والتقليد في الصوت) كل بحسب من أعجبه صوته، فعمروا المحاريب بالتقليد، وهم وقوف بين يدي الله تعالى، يؤمون المصلين، ليحرك الإمام نفوس المأمومين بصوت غيره، ويتلذذ السامعون بِحُسن أدائه فيه، بل وصل الحال إلى أن الإمام في التراويح، قد يقلد صوتين، أو ثلاثة، وهكذا، وقد سمعت في هذا عجباً. وصدق أبو الطيب المتنبي:

وأسرعُ مَفْعُولٍ فَعَلْتَ تَغَيُّراً تكلف شيء في طِبَاعِكَ ضِده

وحيث إن هذا أمر إضافي في عبادة، والعبادات سبيلها الوقوف على النص ومورده، بل هنا في أفضل الكلام (القرآن الكريم)، وفي أفضل العبادات العملية (الصلاة) والمسلم مطالب بأن لا يعبد الله إلا بما شرع، فالسؤال الوارد إذاً:

ما حكم التعبد بتقليد صوت القارئ، هل هو مطلوب شرعاً أو غير مطلوب؟ وإذا كان مطلوباً فما دليله؟ وما منزلته من قسمي الطلب: الوجوب والندب؟ وإن لم يكن مطلوباً فما حكمه؟ وما موقعه من قسمي النهي: التحريم والكراهية؟ ومعلوم أن الإِباحة، وهي القسم الخامس من أقسام التكليف، لا دخل لها في أمور التعبد .

والجواب على هذا يتحقق بأمور:

الأول: الصوت: نعمة أنعم الله بها على عباده، و(حُسن الصوت خِلقة) نعمة أخرى، يتفضل الله بها على من يشاء من عباده، مثل: نعمة الجمال، ونعمة القوة، ونعمة: الجاه، والمال، والسلطان، وهكذا.

ويقتضي شكر العبد لأي من هذه النعم، استعمالها فيما هو طاعة لله، ولرسوله صلى الله عليه وسلم كاستعمال نعمة الصوت في: قراءة القرآن .

والمراد من تحسين الصوت بالقرآن: تطريبه، وتحزينه، والتخشع به، حَوَالَة على الوازع الباعث الجاري على وفق الفطرة، ولهذا كان أحسن القراءات ما كان عن خشوع من القلب. قال طاووس: أحسن الناس صوتاً بالقرآن: أخشاهم لله» رواه أبو عبيد . قال ابن كثير : «وهو في معنى حديث مرفوع نحوه»[1] .

والغرض، أن المطلوب شرعاً إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبُّر القرآن وتفهمه والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة .

فأما الأصوات بالنغمات المحدثة المركبة على الأوزان والأوضاع الملهية والقانون الموسيقائي، فالقرآن ينزه عن هذا ويجل ويعظم أن يسلك في أدائه هذا المذهب. وقد جاءت السنة بالزجر عن ذلك كما قال الإمام العلم أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله: حدثنا نعيم بن حماد عن بقية بن الوليد عن حصين بن مالك الفزاري، قال: سمعت شيخاً يكنى أبا محمد يحدث عن حذيفة بن اليمان، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإياكم

[1] فضائل القرآن لابن كثير: ص / 125، 126، وأما الحديث فصححه الألباني في كتاب: صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم ص / 93 .

ولحون أهل الفسق وأهل الكتابين، وسيجيء قوم من بعدي يرجِّعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم»[1]. وحدثنا يزيد عن شريك عن أبي اليقظان عثمان بن عمير عن زاذان أبي عمر عن عُليم الكندي قال: كنا على سطح ومعنا رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. قال: يزيد لا أعلمه إلا قال عابس الغفاري. فرأى الناس يخرجون في الطاعون قال: ما هؤلاء؟ قال: يفرون من الطاعون فقال: يا طاعون خذني، فقالوا أتتمنى الموت وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يتمنين أحدكم الموت»؟ فقال إني أبادر خصالاً سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوفهن على أمته: بيع الحكم والا... [2] بالدم وقطيعة الرحم وقوم يتخذون القرآن مزامير، يقدمون أحدهم ليس بأفقههم ولا أفضلهم إلا ليغنيهم به غناء، وذكر خلتين آخرتين.

وعن إبراهيم عن الأعمش عن رجل عن أنس أنه سمع رجلا يقرأ القرآن بهذه الألحان التي أحدث الناس فأنكر ذلك ونهى عنه. وهذه طرق حسنة في باب الترهيب.

---

[1] قلت: الحديث ضعيف، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: رواه الطبراني في الأوسط وفيه راو لم يسم، وبقية بن الوليد. وضعفه الشيخ الألباني، انظر حديث رقم: 1067 في ضعيف الجامع.

[2] قال الشيخ بكر أبو زيد: «موضع البياض مقطوع من الأصل». قلت: البياض المقطوع هو: «واستخفاف» أو استخفافا، كما هو مثبت في مسند الإمام أحمد وعند الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب، وأبي نعيم في معرفة الصحابة، والطحاوي في مشكل الآثار.

وهذا يدل على أنه محذور كبير، وهو قراءة القرآن بالألحان التي يسلك بها مذاهب الغناء، وقد نص الأئمة رحمهم الله على النهي عنه، فأما إن خرج به إلى التمطيط الفاحش الذي يزيد بسببه حرفاً أو ينقص حرفاً فقد اتفق العلماء على تحريمه، والله اعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: ثنا محمد بن معمر، ثنا روح، ثنا عبيد الله بن الأخنس عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». ثم قال: ولنا ما ذكرناه، لأنهم اختلفوا على ابن أبي مليكة فيه فرواه عبد الجبار بن الورد عنه، عن ابن أبي مليكة عن أبي لبابة، ورواه عمرو بن دينار، والليث عنه عن ابن أبي نهيك عن سعد، ورواه عسل بن سفيان عنه عن عائشة، ورواه نافع مولى ابن عمر عن ابن الزبير». انتهى.

وقد رغب النبي صلى الله عليه وسلم في هذا السماع المبارك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما أذن الله لشيء ما أذن للنبي أن يتغنى بالقرآن». متفق عليه.

والأحاديث بمعناه كثيرة في مشاهير السنن وغيرها.

وعليه: فالصوت نعمة، وحُسْنُه خلقة فضيلة لا يجوز استعمالها في منهي عنه، ومن شُكرها استعمالها في طاعة الله .

الثاني: أن الصوت حسناً كان أو فظيعاً خِلْقة لم يعلق الله عليه مدحاً ولا ذماً، لأنه ليس فعلاً للعبد وإنما يذم العبد ويمدح بأفعاله الاختيارية، فمن كان صوته غير حسن – مثلا – فإنه لا يذم على ذلك، ويذم بما يكون باختياره كرفع

الصوت الرفع المنكر، كما يوجد ذلك في أهل الغلظ والجفاء من الفَدَّادِيْنَ والصخَّابين في الأسواق. وفي صفة النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخَّاب في الأسواق»[1]. وقال تعالى عن لقمان في وصيته لابنه:(**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**) [لقمان:19]. فأمره أن يغض من صوته، وأن يقصد في مشيه، كما أمر المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم.[2]

الثالث: أن يكون الصوت الطبيعي خِلْقة: حسناً لذيذاً، مطرباً أمر يدرك بالإِحساس، ويشترك فيه جميع الناس، والإِنسان مجبول على محبة الحسن وبغض السيء. إذاً: فالفضيلة في (حسن الصوت) معلقة على استعماله فيما هو طاعة لله تعالى، فإذا استعين بهذه الفضيلة على ما أمر الله به كان طاعة. كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» رواه البخاري وغيره. فهذا الصوت الحسن الطبيعي إذا جعل في طاعة الله، وأجلها قراءة القرآن الكريم، كان طاعة لله تعالى، وعوناً على عبادته واستماع كتابه فيثاب المسلم على هذا الالتذاذ، وحلاوة ذلك أعظم الحلاوات[3]. أما أن يكون مجرد استحسان الإنسان للصوت، دليل على استحبابه في الدين والتعبد به مجرداً، فهذا ضلال، إذ حقيقته تدين بعشق الصوت كالتدين بعشق

---

[1] صحيح الأدب المفرد البخاري(ص: 110)، ومشكاة المصابيح للتبريزي(3/ 1603)

[2] انظر: السماع لابن القيم ص / 354 ، والاستقامة لابن تيمية 1 / 334، 335 .

[3] انظر: الاستقامة 1 / 343 .

الصور الحسنة، وقد تنكبهما أهل العلم والإيمان، وردوا على منحرفة المتصوفة في التعبد بعشق الصور الجميلة[1] وبعشق الأصوات الجميلة، وما تثيره من الوجد والحركة. فالصوت لا يستلذ به لذاته تعبداً، وإنما لما يحمله من آيات التنزيل، وقوارع القرآن الكريم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فالسماع الشرعي الديني: سماع كتاب الله، وتزيين الصوت به، وتحبيره، كما قال صلى الله عليه وسلم: «زينوا القرآن بأصواتكم»[2]. وقال أبو موسى: «لو علمت أنك تستمع لحبرته تحبيراً»[3]. والصور والأزواج، والسراري التي أباحها الله تعالى.

والعبادة: عبادة الله وحده لا شريك له **﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾** [النور: 36]. وهذا المعنى يقرر قاعدة: اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم. وينهى أن يشبه الأمر الديني الشرعي بالطبيعي البدعي لما بينهما من القدر المشترك كالصوت الحسن، ليس هو وحده مشروعاً، حتى ينضم إليه القدر المميز، كحروف القرآن، فيصير المجموع من المشترك، والمميز هو: الدين النافع». انتهى[4].

---

[1] قام شيخا الإسلام ابن تيمية وابن القيم بالرد على المتصوفة في ذلك في كتبهما انظر: الاستقامة لابن تيمية 1 / 331، 373 ، والسماع لابن القيم . وعلى هذين الكتابين بنيت الوجوه في هذه الرسالة، وانظر الفتاوى 2 / 42 .

[2] رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والدارمي، صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (2/ 401)

[3] حديث صحيح، سبق تخريجه.

[4] مجموع الفتاوى(1 / 76، 77)

وعليه: فلا يعلق الصوت الحسن: ببذل الإكرام والتَّجِلَّة لصاحب الصوت الحسن على ما يبذله من صوت حسن، كما لا يعلق الإِكرام على حسن الصورة، لمن كان جميلاً، فعشق الصوت المجرد كعشق الصورة في النهي سواء. ولا تغتر بفعلات المتصوفة من التعبد بعشق الصورة بدون فاحشة، وإكرام صاحبها، والتعبد بعشق الصوت الحسن بدون قول زور أو منكر، وجعل ذلك من سبل التعبد والإِكرام، فهذا ضلال وفساد.[1]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «فإن محبة النفوس: الصورة والصوت، قد تكون عظيمة جداً، فإذا جعل ذلك ديناً، وسُمِّي لله، صار كالأنداد، والطواغيت المحبوبة تديناً، وعبادة كما قال تعالى: ﴿**وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ**﴾ [البقرة: 93].

وقال أيضاً رحمه الله تعالى: «وليس في دين الله محبة أحد لحسنه قط، فإن مجرد الحسن لا يثيب الله عليه ولا يعاقب، ولو كان كذلك كان يوسف عليه السلام، لمجرد حسنه، أفضل من غيره من الأنبياء لحسنه. وإذا استوى شخصان في الأعمال الصالحة، وكان أحدهما أحسن صورة وأحسن صوتاً، كانا عند الله سواء، فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم، يعم صاحب الصوت والصورة الحسنة، إذا استعمل ذلك في طاعة الله دون معصيته، كان أفضل من هذا الوجه، كصاحب المال والسلطان إذا استعمل ذلك في طاعة الله دون معصيته، فإنه بذلك الوجه أفضل ممن لم

---

[1] قال العلامة بكر أبو زيد: ومن هذا عمل (المغبرة) للتغبير، وهو المعروض اليوم على شباب المسلمين باسم (الأناشيد الإسلامية) وقد بينت هذا في رسالة مستقلة .

يشركه في تلك الطاعة، ولم يُمتحن بما امُتحن به، حتى خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. ثم ذلك الغير إن كان له عمل صالح آخر يساويه به، وإلا كان الأول أفضل مطلقا «. انتهى[1].

وقال رحمه الله تعالى: «وهذا الذي ذكرناه من أن الحَسَن الصورة والصوت، وسائر من أنعم الله عليه بقوة أو بجمال أو نحو ذلك، إذا اتقى الله فيه كان أفضل ممن لم يؤت ما لم يمتحن فيه – فإن النعم محن – فإن أهل الشهوات من النساء والرجال يميلون إلى ذي الصورة الحسنة، ويحبونه ويعشقونه، ويرغِّبونه بأنواع الكرامات، ويرهِّبونه عند الامتناع بأنواع المخوِّفات، كما جرى ليوسف عليه السلام وغيره. وكذلك جماله يدعوه إلى أن يطلب ما يهواه، لأن جماله قد يكون أعظم من المال المبذول في ذلك .

وكذلك حَسَن الصوت قد يُدعى إلى أعمال في المكروهات، كما أن المال والسلطان يحصل بهما من المكِنَة[2] ما يُدعى مع ذلك إلى أنواع الفواحش والمظالم، فإن الإنسان لا تأمره نفسه بالفعل إلا مع نوع من القدرة، ولا يفعل بقدرته إلا ما يريده، وشهوات الغيّ مستكنّة في النفوس، فإذا حصلت القدرة قامت المحنة، فإما شقي وإما سعيد، ويتوب الله على من تاب. فأهل الامتحان إما أن يرتفعوا وإما أن ينخفضوا. وأما تحريك النفوس عن مجرد الصوت، فهذا أيضا محسوس، فإنه يحركها تحريكاً عظيماً جداً بالتفريح والتحزين، والإغضاب والتخويف، ونحو ذلك

---

[1] الاستقامة 1 / 348 . 349

[2] المكنة: التمكن، تقول العرب إن بني فلان لذو مَكِنةٍ من السلطان أي ذو تَمَكُّنٍ. (تهذيب اللغة 10/ 162)

من الحركات النفسانية، كما أن النفوس تتحرك أيضا عن الصور بالمحبة تارة وبالبغض أخرى، وتتحرك عن الأطعمة بالبغض تارة والنفرة أخرى، فتحرك الصبيان والبهائم عن الصوت هو من ذلك، لكن كل ما كان أضعف كانت الحركة به أشد، فحركة النساء به أشد من حركة الرجال، وحركة الصبيان أشد من حركة البالغين، وحركة [البهائم][1] أشد من حركة الآدميين، فهذا يدل على أن قوة التحرك عن مجرد الصوت لقوة ضعف العقل، فلا يكون في ذلك حمد إلا وفيه من الذم أكثر من ذلك، وإنما حركة العقلاء عن الصوت المشتمل على الحروف المؤلَّفة المتضمنة للمعاني المحبوبة، وهذا أكمل ما يكون في استماع القرآن. وأما التحرك بمجرد الصوت، فهذا أمر لم يأت الشرع بالندب إليه، ولا عقلاء الناس يأمرون بذلك، بل يعدُّون ذلك من قلة العقل، وضعف الرأي، كالذي يفزع من مجرد الأصوات المفزعة المرعبة. وعن مجرد الأصوات المغضبة «. انتهى من كلام شيخ الإسلام[2].

والحاصل: أن مجرد الصوت حسناً أو غير حسن، لم يعلق الله عليه حكماً، لا مدحاً، ولا ذماً، بل لا يجوز فيه ذمه إذا كان غير حسن، لأنه خلْق الله، لا اختيار للعبد فيه، وأن الصوت الطبيعي الحسن، نعمة على العبد، و (النعم محن) فإن استعمله في الطاعة في قراءة كتاب الله تعالى كان ذلك أمراً مرغوباً فيه شرعاً، واستماعه مرغوب شرعاً لا لذات الصوت، لكن لأنه يحمل كلام الله، ويحببه إلى

---

[1] مكان كلمة (البهائم) بياض في الأصل، وأرجوا أن يكون إثباتها هو الصواب. (قاله محقق كتاب الاستقامة: محمد راشد سالم).

[2] الاستقامة 1 / 372،374 .

النفوس ويوصل معانيه إلى القلوب، وأن من كان كذلك لم يمنحه الشرع حكماً مستقلا لذات الصوت دون غيره. وأن تحريك الصوت للإنسان أمر طبعي، كما يتحرك كل إلى ما يناسبه من الأصوات وإنما التعبد أن يتحرك العبد إلى كلام الله وما فيه من العظة والعبرة، والتذكير بالمصير، وبالجنة والنار، وعظيم الحكم والأحكام، أما لو تحرك عند قراءة القرآن طرباً لمجرد حسن الصوت، دون ما يحمله من آيات القرآن الكريم، فهذا عشق مجرد من التعبد، لعدم ورود أمر التعبد عليه في الشرع المطهر. وإذا استقر عندك هذا المحصول الجامع لأحكام الصوت الحسن، بقي الوقوف على حكم هذه الظاهرة الحادثة: (الافتتان بتقليد أصوات القراء، والقراءة بها في المحاريب بين يدي الله تعالى) عندئذ نقول: هذا أمر (إضافي إلى التعبد في القراءة) فهذا (التقليد) (عبادة). ومعلوم أنه قد وجد المقتضى لهذا في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وعصر صحابته رضي الله عنهم، فلم يُعمل العمل به عن أحد منهم رضي الله عنهم وقد عُلم في (الأصول): أن ترك العمل بالشيء في عصر النبي صلى الله عليه وسلم مع وجود المقتضي له يدل على عدم المشروعية.

فالصوت الحسن في القراءة موجود في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، ورأس الأمة في هذا نبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فهذا المقتضي موجود، ولم يُعلم أن أحداً تقرب إلى الله تعالى بتقليد صوت النبي صلى الله عليه وسلم أو أحد من صحابته، ولا من بعدهم، وهكذا. فدل هذا على عدم مشروعية هذا التقليد، وعلم به أن التقرب إلى الله تعالى بذلك (التقليد والمحاكاة لأصوات القراء) أمر مهجور، فالتعبد به أمر محدث، وقد نهينا عن الإحداث في الدين. وقاعدة الشرع

أن كل أمر تعبدي محدث فهو: بدعة وكل بدعة ضلالة، وأن الشغف والتدين بحسن الصوت فحسب، والتلذذ به، كالتدين بعشق الصور، فهما في الابتداع والتحريم سواء. بل يضاف إلى المحاكاة للصوت الحسن، أن فيها نوع تبعية مُذلة، والشرع يبني في النفوس: العزة، والكرامة، وترقية العقول، واستقلالها، وتمحض متابعتها لهدي النبوة لا غير.

وتأمل هل من قَلّدت صوته كان مقلداً لآخر، أم بحكم ما وهبه الله له؟ وتأمل أيضاً هل رأيت عظيماً يشار إليه بالعلم، والفضل، والمكانة يقلد صوت آخر في القراءة، أو في الخطابة، أو في الأذان، أو في الكلام المعتاد والأداء فيه؟!. والشرع يدعو إلى تحسين القارئ صوته، وهذا أمر مشروع في حق من يملكه، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وتطلُّبه بالتقليد والمحاكاة، تكليف بما لا يسع العبد في طبعه، فهو غير مطلوب وتكلف العبد ما لا يطيقه كمن يريد شَبْرَ البسيطة. وهذا هو ما تقتضيه (الفطرة) التي فطر الله عليها عباده، ودين الإسلام هو الفطرة **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾** [الروم:30].

فدين الإسلام ينفجر من ينبوع معنى الفطرة. وحقيقة الفطرة: ما فُطِرَ وخُلِقَ عليه الإنسان ظاهراً وباطناً، أي جسداً وعقلاً، فسير الإنسان على قدميه كما يسر الله له فطرة، ومحاولة تقليد غيره في المشي ممن يراه أحسن منه مشية معاكسة للفطرة، وهكذا نطقه بما يسر الله له، وركب فيه من حباله الصوتية، واستعداد حنجرته، ومجاري نَفَسه هذا هو الفطرة.

وقد أحاله الشرع إلى الوازع الباعث حسب الجبلَّة والخلقة، ومحاولة العدول عن هذا إلى صوت غيره هذا خلاف الفطرة حساً، ويعاكسها عقلاً فالفطرة حسّاً وعقلاً، والإسلام دين الفطرة أن تجري حواسه في قانونها التي ركبت عليه من لدن حكيم خبير، وفي قالب الإسلام وهذا هو محض العقل، والعاقل لا يعاكس الفطرة معنى ولا حساً:(**يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ**)[الانفطار: 6 - 8]. وقال تعالى: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) [التين: 4]. فالمقلد يعدل عن خلق الله له في ذلك التقويم، ثم يفعل بنفسه الأفاعيل ليتحول إلى صورة ركيكة! !

نعم، لا ينكر توافق بعض الأصوات ـ حسناً كان الصوت أو غير حسن ـ لكن السامع يميز بين هذا وذلك.

إذا استقر ذلك: فاعلم أن المحْدث يتولد منه أمور محدثة، وهكذا تبدو المحدثات صغاراً، ثم تنمو، وتزداد، حتى تتقطع السبيل إلى السبل، وتغاب السنن.

وقد تولد عن فتنة التقليد: إحياء البدعة المهجورة لدى المتصوفة. (التعبد بعشق الصوت) وقد كشف أهل السنة في مبحثي (عشق الصور، وعشق الصوت) بدعية التعبد بهذا العشق، وأنه فتنة للتابع والمتبوع. وتولد منها في عصرنا: الازدحام في المساجد التي سبيل إمامها كذلك في المحاكاة، وقد بينت النهي عن تتبع المساجد طلباً لحسن الصوت فيما كتبت عن (ختم القرآن)، بل بلغنا بخبر الثقات عن مشاهدة منهم أن بعضهم يسافر من بلد إلى بلد آخر في أيام رمضان ليصلي التراويح في مسجدٍ إمَامُه (حسن الصوت) .

فانظروا – رحمكم الله – كيف خرق سياج السنة في النهي عن شد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى. ومن ولائد ذلك: تَكَرُّه النفوس للصلاة خلف إمام لا يُستحسن صوته. ومنها: انصراف من شاء الله من عباده عن الخشوع في الصلاة، وحضور القلب . . . إلى التعلق بمتابعة الصوت الحسن لذات الصوت.

وأنصح كل مسلم قارئ لكتاب الله تعالى وبخاصة أئمة المساجد، أن يكفوا عن المحاكاة والتقليد في قراءة كلام رب العالمين، فكلام الله أجل، وأعظم من أن يجلب له القارئ ما لم يطلب منه شرعاً زائداً على تحسين الصوت حسب وسعه لا حسب قدرته على التقليد والمحاكاة، وقد قال الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: **﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾** [ص: 86]. وليجتهد العبد في حضور القلب، وإصلاح النية فيقرأ القرآن محسناً به صوته من غير تكلف، وليجتنب التكلف من الأنغام، والتقعر في القراءة، والممنوع من حرمة الأداء. وينبغي لمن بسط الله يده أن يجتهد في اختيار الإمام – في الصلاة – الأعلم والأتقى الأورع، السالم في اعتقاده من مرض الشبهة وفي سلوكه من مرض الشهوة، وتقديم حسن الصوت الطبعي على غيره. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «أما تحسين الصوت، وتقديم حسن الصوت على غيره فلا نزاع في ذلك». انتهى[1].

[1] فتح الباري 9 / 72 .

تنبيه: ما تقدم من النهي عن التقليد والمحاكاة في الأصوات هو عام في حق الرجال، والنساء، وإذا قلدت المرأة في صوتها صوت رجل، كان النهي مُعَللاً بالتشبه أيضاً .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «قال الطبري: لا يجوز للرجال التشبه بالنساء في اللباس والزينة التي تختص بالنساء، ولا العكس. قلت: . القائل ابن حجر . : وكذا في الكلام والمشي... (إلى أن قال): وأمَّا ذَمُّ التشبه بالكلام والمشي، فمختص بمن تعمد ذلك، وأما من كان ذلك من أصل خلقته، فإنما يؤمر بتكلف تركه، والإدمان على ذلك بالتدريج، فإن لم يفعل وتمادى دخله الذمَّ ...». انتهى[1] . والله أعلم .

قال مقيده: هذا ما رجحه الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله في رسالته (بدع القراء)، وكذا لما سئل الشيخ ابن العثيمين رحمه الله عن حكم تقليد الإمام أحد القراء في قراءته؟

أجاب بقوله: يجوز أن يقلد أحد القراء في قراءته، ما دام أداء القارئ الذي قلده جيدا. أما الصوت فلا يقلده فيه.»[2].

وقال رحمه الله في موطن آخر:

---

[1] المصدر نفسه 10 / 332 .

[2] مجموع فتاوى ورسائل العثيمين حرر في 1419/4/14هـ (15/ 159)

« .. إذا قلد إمام المسجد شخصاً حسن الصوت والقراءة من أجل أن يحسن صوته وقراءته لكتاب الله عز وجل، فإن هذا أمر مشروع لذاته ومشروع لغيره أيضاً. لأن فيه تنشيطاً للمصلين خلفه، وسبباً لحضور قلوبهم واستماعهم وإنصاتهم للقراءة، وفضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم» .[1]

قلت: من تدبر دليل الشيخين، رحمهما الله . يجد أن كلا من الشيخين بكر أبي زيد وابن عثيمين يريان عدم جواز تقليد الأصوات، لكن الشيخ ابن عثيمين لا يرى بأسا بتقليد قراءة قارئ ما، حسن الصوت.

والذي أراه أنه إذا كان هذا التقليد سيمكن المقلد من الخشوع والتدبر والتأمل والتأثر، وليس فيه سمعة ولا رياء، ولا محاكة لصوت المقلَّد، فلا بأس، وإلا فتركه أحوط لنفسه. والله أعلم.

تنبيه: اعلم رحمك الله، أن التقليد عموما مانع من الفهم، ويدخل فيه تقليد مذهب ما، والتعصب إليه من غير دليل، ولذلك قال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله: «ثانيها . أي من موانع الفهم .: أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه، وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع، من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة، فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه، فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده، فصار نظره موقوفاً على مسموعه، فإن لمع برق على بُعد وبدا له معنى من المعاني التي تباين مسموعه، حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال: كيف

---

[1] كتاب الدعوة 5 ابن عثيمين

يخطر هذا ببالك، وهو خلاف معتقد آبائك؟ فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله..»[1].

[1] إحياء علوم الدين (1/ 284) ومن أراد التوسع في ذم التقليد فليراجع ما جاء في إعلام الموقعين للإمام ابن القيم رحمه الله.

الحجاب الثالث

الإصرار على الذنوب

إصرارُ قارئٍ على الذنوبِ　　　يطفئُ عنه النورَ في القلوبِ

هذا الحجاب الثالث، المانع من فهم القرآن. وهو: الإصرار على الذنوب.

والإصرار: معناه الإقامة على الذنب والعزم على فعل مثله[1]. ونفيه هو معنى الإقلاع. قال تعالى: (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون).آل عمران:135. قال صلى الله عليه وسلم:: «ما من رجل يُذنب ذنباً، ثم يقوم فيتطهر، ثم يصلي، ثم يستغفر الله، إلا غفر الله له. ثم قرأ هذه الآية: **(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ)** [آل عمران: 135]».[2]

---

[1] التعريفات (ص: 28)

[2] رواه الترمذي وحسنه، وأبو داود، وصححه الألباني في (صحيح الجامع برقم 5738).

وروى أبو نعيم في الحلية عن الحسن بن صالح قال: «العمل بالحسنة قوة في البدن، ونور في القلب، وضوء في البصر، والعمل بالسيئة وهن في البدن، وظلمة في القلب، وعمي في البصر».[1]

وروى مسلم في صحيحه من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا يضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز مُجخيا، لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، إلا ما أشرب من هواه»[2].

ومعنى مجخيا: أي مائلا أو منكوسا: أي إن القلب إذا افتتن وخرجت منه حرمة المعاصي خرج منه نور الإيمان كما يخرج الماء من الكوز إذا مال أو انتكس.

قال الإمام النووي رحمه الله: « وقال صاحب التحرير[3]: معنى الحديث أن الرجل إذا تبع هواه وارتكب المعاصي دخل قلبه بكل معصية يتعاطاها ظلمة، وإذا صار كذلك افتتن وزال عنه نور الإسلام . والقلب مثل الكوز فإذا انكب انصب ما فيه ولم يدخله شيء بعد ذلك».[4]

---

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (7/ 330)

[2] رواه مسلم في صحيحه(144)، و مسند أحمد (23280)

[3] هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن محمد بن الفضل التميمي الأصبهاني الشافعي رحمه الله. وكتابه: (التحرير في شرح صحيح مسلم)

[4] شرح النووي على مسلم (1/ 268)

والمعنى: أن من الحجب المانعة من الفهم، أن تكون مصراً على ذنب، أو متصفاً بكبر، أو مبتلى في الجملة بهوى في الدنيا مطاع. فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، وهو كالخبث على المرآة، فيمنع جلية الحق من أن يتجلى فيه. وهو أعظم حجاب للقلب، وبه حُجب الأكثرون.

وكلما كانت الشهوات أشد تراكماً، كانت معاني الكلام أشد احتجاباً. وكلما خف عن القلب أثقال الدنيا، قرب تجلي المعنى فيه. فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصدإ. ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة. والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرآة.

وقد شرط الله عز وجل الإنابة في الفهم والتذكير فقال تعالى:(**تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ**) [ق: 8]. وقال عز وجل:(**وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ**) [غافر: 13]وقال تعالى: (**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**) [الزمر: 9]. فالذي آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة فليس من ذوي الألباب، ولذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب. (مستفاد من الإحياء).[1]

---

[1] إحياء علوم الدين(1/ 284 285)

الحجاب الرابع

التعصب لتفسير واحد

لُزوم تفسيرٍ ورأيٍ واحدِ   فليس عنه أبدا بحائدِ

هذا الحجاب الرابع، وهو: التعصب لتفسير واحد.

والتعصب: هو عدم قبول الحق عند ظهور دليله.[1]

فإن من موانع الفهم، أن تتخذ لك تفسيرا واحدا، وتجعله المرجع الوحيد عندك، والشاهد الأوحد في معرفة آيات الله تعالى، فلا تلتفت إلى ما جاء في التفاسير الأخرى، وهذا من سلبيات التعصب والتقليد الجامد.

قال الإمام الغزالي رحمه الله في هذا: « رابعها . أي حجب الفهم .: أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي، وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار، فهذا أيضا من الحجب العظيمة».[2]

وقال العلامة ابن عاشور رحمه الله في هذا الباب: « وقال فخر الدين في تفسير قوله تعالى: (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) [النساء: 19]. «وقد ثبت في أصول الفقه أن المتقدمين إذا ذكروا وجها في تفسير الآية فذلك لا يمنع المتأخرين من استخراج

[1] دستور العلماء جامع العلوم في اصطلاحات الفنون (1/ 218)

[2] إحياء علوم الدين (1/ 285)

وجه آخر في تفسيرها وإلا لصارت الدقائق التي يستنبطها المتأخرون في التفسير مردودة، وذلك لا يقوله إلا مقلد خلف».[1]

وقال سفيان بن عيينة في قوله تعالى: **﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾** [إبراهيم: 42]. هي تسلية للمظلوم وتهديد للظالم، فقيل له: من قال هذا؟ فغضب وقال: «إنما قاله من علمه».[2] يريد نفسه.

وقال أبو بكر ابن العربي في «العواصم»: إنه أملى على سورة نوح خمسمائة مسألة، وعلى قصة موسى ثمانمائة مسألة[3].

وهل استنباط الأحكام التشريعية من القرآن في خلال القرون الثلاثة الأولى من قرون الإسلام إلا من قبيل التفسير لآيات القرآن بما لم يسبق تفسيرها به قبل ذلك؟

وهذا الإمام الشافعي يقول: « تطلبت دليلا على حجية الإجماع فظفرت به في قوله تعالى:**﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾** [النساء: 115][4].

---

[1] تفسير الرازي (مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير) (9/ 490)

[2] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري(2/ 563)

[3] لم أجده في العواصم.

[4] الرواية التي ذكرها البيهقي في أحكام القرآن للشافعي (1/ 40). قال الشافعي: « قرأت القرآن في كل يوم وليلة ثلاث مرات، حتى وقفت عليه». أي على الآية الدال على الإجماع.

قال شرف الدين الطيبي في «شرح الكشاف» في سورة الشعراء: «شرط التفسير الصحيح أن يكون مطابقا للفظ من حيث الاستعمال، سليما من التكلف عريا من التعسف». وصاحب «الكشاف» يسمي ما كان على خلاف ذلك بدع التفاسير. (إلى أن قال): هذا وإن واجب النصح في الدين، والتنبيه إلى ما يغفل عنه المسلمون مما يحسبونه هينا وهو عند الله عظيم، قضى علي أن أنبه إلى خطر أمر تفسير الكتاب والقول فيه دون مستند من نقل صحيح عن أساطين المفسرين، أو إبداء تفسير أو تأويل من قائله إذا كان القائل توفرت فيه شروط الضلاعة في العلوم التي سبق ذكرها في المقدمة الثانية . يريد: استمداد علم التفسير..

فقد رأينا تهافت كثير من الناس على الخوض في تفسير آيات من القرآن، فمنهم من يتصدى لبيان معنى الآيات على طريقة كتب التفسير، ومنهم من يضع الآية ثم يركض في أساليب المقالات، تاركا معنى الآية جانبا، جالبا من معاني الدعوة والموعظة ما كان جالبا.

وقد دلت شواهد الحال على ضعف كفاية البعض لهذا العمل العلمي الجليل، فيجب على العاقل أن يعرف قدره، وأن لا يتعدى طوره، وأن يرد الأشياء إلى أربابها، كي لا يختلط الخاثر بالزباد[1]، ولا يكون في حالك سواد. وإن سكوت العلماء على ذلك زيادة في الورطة، وإفحاش لأهل هذه الغلطة، فمن يركب متن

[1] خثارة الشيء بقيته، والزباد : الزبد. وذلك إذا ارْتجن أي فَسد عند المخض. وقيل: هو اللبنُ الرقيقُ. ويروى: بالزبّادِ – بالتشديد – وهو عُشبُ إذا وقعَ في الرَائب تعسرَ تَخليصهُ منه. وهذا من الأمثال التي تُضْرَبُ في اسْتِبْهَامِ الأمرِ وارْتِباكِهِ، و في اختلاطِ الحقُ بالباطلِ

عمياء، ويخبط خبط عشواء، فحق على أساطين العلم تقويم اعوجاجه، وتمييز حلوه من أجاجه، تحذيرا للمطالع، وتنزيلا في البرج والطالع». انتهى من التحرير[1].

قلت[2]: إن المسلمين في العهد الأول كانوا على خير، وعلى فهم شامل للإسلام، فاكتفى كل مفسر فيما برع فيه، واستخرج ما اهتم به، حسب مشاربه العلمية، وثقافته العصرية، فصنفوا فيه تصانيف مختلفة الأوصاف، متباينة الأصناف، منهم من احتج بالأثر، ومنهم من استعمل الرأي والنظر، ومنهم من آثر الاختصار، ومنهم من طول حتى كثر الأسفار، ومنهم من تكلم في بعض فنون العلم دون بعض، ومنهم من اعتمد على نقل أقوال الناس، ومنهم من عول على النظر والتحقيق والتدقيق، وكل أحد سلك طريقا نحاه، وذهب مذهبا ارتضاه، وكلا وعد الله الحسنى[3].

والمطلع ـ الآن ـ على كتب التفسير الموجودة بأيدينا، يعلم جيدا أنه لن يغني تفسير عن تفسير، مهما أوتي المفسر من علم وتقدير، إذ قد يفتح الله تعالى على عبد من عباده فهما لم يُسبق إليه، ويُلهَم إلى لطائف لم تُفتح إلا عليه، كما جاء في صحيح البخاري من حديث مُطَرِّفٌ قال: سمعت الشعبي قال: سمعت أبا جحيفة قال: سألت عليا رضي الله عنه: « هل عندكم شيء مما ليس في القرآن ـ وقال مرة: ما ليس عند الناس ـ فقال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما عندنا إلا

---

[1] التحرير والتنوير (1/ 29 إلى 37)

[2] نقلا من كتابي: «مكامن الدرر في محاور السور». مقدمة الكتاب.

[33] انظر التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى [1 /3]

ما في القرآن إلا فهما يُعطى رجل في كتابه،..» الحديث[1]. وقال الإمام البغوي رحمه الله في تفسيره: « وقد يفتح الله على المتدبِّر والمتفكر في التأويل والمعاني ما لا يفتح على غيره، وفوق كل ذي علم عليم «.[2]

فلا حجر على أحد من المسلمين ـ له من العلوم الضرورية ـ في تفسير القرآن، واستنباط ما لم يستنبطه الأولون، اللهم أن يكون من أهل البدع، فيجب حينئذ التحذير من تفسيره، أو أن يكون له فهم جانب فيه الصواب فيُنبَّه عليه ويصحح.

وقد أحصيتُ عدد من ألف في التفسير من عصر الصحابة إلى عصرنا هذا، فوجدتهم قد تجاوزوا الألفين، ولا يزالون في ازدياد[3].

فهذه إذا حجب أربعة: وهي: تكلف الاهتمام بمخارج الحروف، وتقليد مشاهير القراء، والإصرار على الذنوب، والتعصب لتفسير واحد. لو تخليت عنها ـ أيها القارئ ـ لتمكنت من فهم كلام الله تعالى، ولازددت إيمانا وخشوعا، فعليك بتمزيقها.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، وتتمته « .. وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر».

[2] تفسير البغوي 1/ 47

[3] جمع أحد الطلبة أئمة التفسير، ومن اشتهر به أو ألف فيه، في كتاب سماه: «بُغيةُ الدَّارِسين في وَفيَات المفسِّرِين». وقد بلغوا ثمان وعشرين وألفين مفسرا ،من عهد الصحابة إلى عام 1400هـ، وقد أُلفت بعد هذه السنة كتب أخرى في التفسير، تزيد عن عشرة. والله أعلم.

فإن وفقك الله تعالى ووقاك من هذه الحجب التي تحول بينك وبين الفهم، فانتقل إلى الأدب السابع. أما إن لم تتمكن من التخلص منها، ولم تستطع خرقَها، فلا جدوى من الانتقال.

فإن علمتَ هذه الموانعا فدونها أيضا تحُلّ سابعا

الأدب السابع

التخصيص

بأن ترى كأنك المخاطَبُ وأنك المقصودُ والمطالَبُ

التخصيص نقيض التعميم، وأعني به هنا: أن تقدر . أيها القارئ . أنك أنت المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن سمعت أمراً أو نهياً، قدّر أنك المنهي والمأمور، وإن سمعت وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك، وإن سمعت قصص الأولين والأنبياء علمتَ أن السمر غير مقصود، وإنما المقصود لتعتبر به أنت، ولتأخذ من تضاعيفه ما تحتاج إليه أنت. فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي صلى الله عليه وسلم وأمته. ولذلك قال تعالى:(**وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**) [هود: 120]، فقدّر أن الله ثبت فؤادك بما يقصه عليك من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيذاء وثباتهم في الدين لانتظار نصر الله تعالى. وكيف لا تقدر هذا، والقرآن ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة، بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين؟ ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب فقال تعالى:(**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ**) [البقرة: 231]، وقال عز وجل: (**لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**) [الأنبياء: 10]، (**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**) [النحل: 44]. (**كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ**) [محمد:

3]. ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: 55]. ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: 20]. ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 138].

وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد، فأنت أيها القارئ مقصود، « فما لك ولسائر الناس، فلتُقدر أنك المقصود. قال الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: 19]، قال محمد بن كعب القرظي: «من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله»[1]. وإذا قدر ذلك لم تتخذ دراسة القرآن عملك، بل تقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه. ولذلك قال بعض العلماء: «هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهوده، نتدبرها في الصلوات، ونقف عليها في الخلوات، وننفذها في الطاعات والسنن المتبعات». وكان مالك بن دينار يقول: «ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن؟ إن القرآن ربيع المؤمن، كما أن الغيث ربيع الأرض». وقال قتادة:» لم يجالس أحد هذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: 82]». انتهى بتصرف.[2]

يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إن هذا القرآن لا يتفتح عن أسراره إلا للعصبة المسلمة التي تتحرك به، لتحقيق مدلوله في عالم الواقع. لا لمن يقرؤونه لمجرد

---

[1] تفسير الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (2/ 452)

[2] مستفاد من الإحياء بتصرف حيث جعلت صيغة الخطاب من الغائب إلى المخاطَب 1\285

التبرك! ولا لمن يقرؤونه لمجرد الدراسة الفنية أو العلمية، ولا لمن يدرسونه لمجرد تتبع الأداء البياني فيه! إن هؤلاء جميعا لن يدركوا من هذا القرآن شيئا يُذكر. فإن هذا القرآن لم يتنزل ليكون مادة دراسة على هذا النحو، إنما تنزل ليكون مادة حركة وتوجيه»[1].

فهذا معنى: أدب التخصيص، أن تخصص نفسك ـ أيها القارئ ـ بأن تنظر إلى نفسك وحالك، وأنك أنت المقصود بالآيات التي تمر بها. فالتخلق بهذا الأدب سيحملك إلى محاسبة نفسك، وإصلاح حالك، على ما مر من أمثلة لكيفية التعامل مع الآيات. والله الموفق.

[1] في ظلال القرآن (4 / 1948)

الأدب الثامن

التأثر

والثامنُ اجتناب ما قد أوعدا   وموقنا بأنه عينُ الرّدى

الأدب الثامن، هو: التأثر. أو التَّأْثِيرُ: ولغة هو إبقاءُ الأثَرِ في الشَّيْءِ، وأَثَّرَ في الشيء: ترك فيه أَثَراً.[1] والتأثر هو الانفعال، والعكس صحيح.[2]

والمراد به هنا: أن يبقى في قلبك أثر الآية، سواء آية الوعد أو آية الوعيد. خاصة آي الوعيد. وإنما خصصتُ التأثر بالوعيد لأنه الغالب على استقامة النفس، وإلا فالواجب أن يأخذ القلب حظه من الوعد والوعيد، ويتوسط في سيره إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء والحب، كما قيل: «من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد»[3].

فأدب التأثر: هو أن يتأثر قلبك ـ أيها القارئ ـ بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون لك بحسب كل فهم حال، ووجد يتصف به قلبك، من الحزن والخوف والرجاء وغيره. ومهما تمت معرفتك كانت الخشية أغلب الأحوال على

---

[1] الصحاح لأبي نصر الفارابي (2/ 576)، لسان العرب (4/ 5)

[2] معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم للسيوطي (ص: 72)

[3] مجموع فتاوى ابن تيمية 10\207

قلبك، فإن التضييق غالب على آيات القرآن، فلا ترى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقروناً بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله عز وجل في (**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ**) [طه: 82]ثم أتبع ذلك بأربعة شروط (**لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى**)[طه: 82]. وقوله تعالى: (**والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**) سورة العصر. ذكر أربعة شروط، وحيث اقتصر، ذكر شرطاً جامعاً فقال تعالى:(**إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**) [الأعراف: 56]. فالإحسان يجمع الكل. وهكذا من يتصفح القرآن من أوله إلى آخره.

يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله: « ومن فهم ذلك، فجدير بأن يكون حاله الخشية والحزن. ولذلك قال الحسن: «والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا كثر حزنه، وقل فرحه، وكثر بكاؤه، وقل ضحكه، وكثر نصبه وشغله، وقلت راحته وبطالته».

وقال وهيب بن الورد رحمه الله[1]: «نظرنا في هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئاً أرق للقلوب، ولا أشد استجلاباً للحزن، من قراءة القرآن وتفهمه وتدبره».

فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة، فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط، يتضاءل من خيفته، كأنه يكاد يموت. وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح. وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعاً

---

[1] وهيب بن الورد بن أبي الورد المخزومي، بالولاء، أبو أمية: من العباد الحكماء. من أهل مكة. توفي رحمه الله 153 هـ موافق770 م)

لجلاله واستشعاراً لعظمته. وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله عز وجل، كذكرهم لله عز وجل ولداً وصاحبة[1] ينكسر في باطنه حياء قبح مقالتهم. وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقاً إليها. وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفاً منها، ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن مسعود: «اقرأ علي، قلت أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: إني أشتهي أن أسمعه من غيري، قال: فقرأت النساء، حتى إذا بلغت ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ [النساء: 41]. قال لي: كف . أو أمسك . فرأيت عينيه تذرفان». وهذا، لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية.

ولقد كان مِن الخائفين مَن خر مغشياً عليه عند آيات الوعيد. ومنهم من مات في سماع الآيات. فمثل هذه الأحوال يخرجه عن أن يكون حاكياً في كلامه.

فإذا قال: ﴿**إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ [الأنعام: 15]. ولم يكن خائفاً كان حاكياً.

وإذا قال:﴿**عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ [الممتحنة: 4]ولم يكن حاله التوكل والإنابة كان حاكياً.

وإذا قال: ﴿**وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا**﴾ [إبراهيم: 12]. فليكن حاله الصبر أو العزيمة عليه حتى يجد حلاوة التلاوة. فإن لم يكن بهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من

---

[1] حذفتُ هنا كلمة: «يغض صوته» إذ لا دليل على ذلك. وإنما يستشعر القارئ بشاعة كلمة الكفر وينكرها فقط. والله أعلم.

التلاوة حركة اللسان مع صريح اللعن على نفسه في قوله تعالى:﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 18]. وفي قوله تعالى:﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 3]، وفي قوله عز وجل: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 1]. وفي قوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: 29]، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: 11]، إلى غير ذلك من الآيات.

وكان داخلاً في معنى قوله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: 78]. يعني التلاوة المجردة، وقوله عز وجل: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: 105]، لأن القرآن هو المبين لتلك الآيات في السموات والأرض، ومهما تجاوزها ولم يتأثر بها كان معرضاً عنها. ومثال العاصي إذا قرأ القرآن وكرره، مثال من يكرر كتاب الملك في كل يوم مرات، وقد كتب إليه في عمارة مملكته، وهو مشغول بتخريبها، ومقتصر على دراسة كتابه؛ فلعله لو ترك الدراسة عند المخالفة لكان أبعد عن الاستهزاء واستحقاق المقت. ولذلك قال يوسف ابن أسباط: «إني لأهم بقراءة القرآن، فإذا ذكرت ما فيه خشيت المقت، فأعدل إلى التسبيح والاستغفار»[1].

والمعرض عن العمل به أريد بقوله عز وجل: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: 187]. ولذلك قال رسول الله

---

[1] قوت القلوب (1/ 108)

صلى الله عليه وسلم: «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه»[1]. وقال الله تعالى: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾** [الأنفال: 2] . وقال صلى الله عليه وسلم: «إن أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله تعالى»[2]...

وفي «الإحياء» أن بعض القراء قال: «قرأت القرآن على شيخ لي، ثم رجعت لأقرأ ثانياً فانتهرني، وقال: جعلت القرآن علي عملاً؟ اذهب فاقرأ على الله عز وجل، فانظر بماذا يأمرك، وبماذا ينهاك» انتهى[3].

فهكذا كان شغل الصحابة رضي الله عنهم في الأحوال والأعمال، وكان الذي يحفظ البقرة وآل عمران من علمائهم. ولما جاء رجل ليتعلم القرآن فانتهى إلى قوله عز وجل **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾** [الزلزلة: 7، 8]. قال: يكفي هذا وانصرف. فقال صلى الله عليه وسلم: «انصرف الرجل وهو فقيه»[4].

وإنما العزيز مثل تلك الحالة التي من الله عز وجل بها على قلب المؤمن عقيب فهم الآية. فأما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى. بل التالي باللسان المعرض عن

---

[1] متفق عليه

[2] رواه أبو نعيم. وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (4/ 157)

[3] إحياء علوم الدين (1/ 286285)

[4] أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو

العمل جدير بأن يكون هو المراد بقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾ [طه: 124] . وبقوله عز وجل: ﴿**قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى**﴾ [طه: 126]. أي تركتها ولم تنظر إليها ولم تعبأ بها. فإن المقصر في الأمر يقال: إنه نسي الأمر. وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل تفسير المعاني، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار. فاللسان يرتل، والعقل يترجم، والقلب يتعظ. انتهى[1].

فإن وقفت عند هذا الأدب . وهو تأثرك بآيات الوعيد خاصة، وبكل آية عامة . فاحمد ربَّك الذي وفقك، وسلهُ المزيد.

اللهم اجعلني منهم.

---

[1] إحياء علوم الدين بتصرف (1/ 285، 287). وأما تلاوة القرآن حق تلاوته، فقد قال أبو جعفر: والصواب من القول في تأويل ذلك أنه بمعنى: يتبعونه حق اتباعه، من قول القائل: ما زلت أتلو أثره، إذا اتبع أثره، لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن ذلك تأويله. (تفسير الطبري 2/ 569)

الأدب التاسع

الترقي

والتاسع استحضارُ مَن تكلّما　　　كأنما السماع منه قد سما

الترقي لغة: التَّنَقُّل مِن حالٍ إلى حالٍ يقالُ: ما زالَ يتَرَقَّى به الحالُ حتى بلَغَ غايَتَه[1]. والمراد به هنا، أن تترقى أيها القارئ حال القراءة حتى لكأنك تسمع الكلام من ربك عز وجل، لا من نفسك.

والسر في ذلك، أن درجات القراءة ـ كما قسمها أبو حامد الغزالي ـ ثلاث، أدناها: أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله عز وجل واقفاً بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه، فيكون حاله عند هذا التقدير: السؤال والتملق والتضرع والابتهال.

الثانية: أن يشهد بقلبه كأن الله عز وجل يراه ويخاطبه بألطافه ويناجيه بإنعامه وإحسانه، فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم.

الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم، وفي الكلمات الصفات، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث إنه منعم عليه، بل يكون مقصور الهم على المتكلم، موقوف الفكر عليه، كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره.

---

[1] تاج العروس(38/ 177)

وهذه درجة المقربين، وما قبله درجة أصحاب اليمين، وما خرج عن هذا فهو درجات الغافلين.

وعن الدرجة العليا ذكر أبو طالب المكي أن جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه قال: «والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقه في كلامه ولكنهم لا يبصرون». وقال أيضاً، وقد سألوه عن حالة لحقته في الصلاة حتى خر مغشياً عليه، فلما سري عنه قيل له في ذلك، فقال: «مازلت أردد الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته»[1].

ففي مثل هذه الدرجة تعظم الحلاوة ولذة المناجاة. ومن ذلك ما ذكره أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله عن أحمد بن ثعلبة قال: سمعت سلماً بن ميمون الخواص[2] يقول: «كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة. فقلت لنفسي: اقرئيه كأنك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فجاءت حلاوة قليلة، ثم قلت لنفسي: اقرئيه كأنك سمعته من جبريل يخبر النبي صلى الله عليه وسلم، فازددت الحلاوة. قال: ثم قلت لها اقرئيه كأنك سمعته منه حين يتكلم به. فجاءت الحلاوة كلها»[3].

---

[1] قوت القلوب (1/ 88)

[2] سلم بن ميمون الخواص هو أصغر من سليمان الخواص. حدث عن: مالك، والقاسم بن معن، وسفيان بن عيينة. روى عنه: أحمد بن ثعلبة، وعمرو بن أسلم الطرسوسي، وغيرهما. ورمي بالإرجاء. انظر(سير أعلام النبلاء (7/ 230)

[3] صفة الصفوة (2/ 415)

وقال عثمان رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبكم ما شبعت من كلام الله عز وجل».[1] وإنما قالوا ذلك لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم في الكلام. ولذلك قال ثابت البناني: «كابدت القرآن عشرين سنة وتنعمت به عشرين سنة». وبمشاهدة المتكلم دون ما سواه يكون العبد ممتثلاً لقوله عز وجل: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾ سورة الذاريات (51،50).

فمن لم يره في كل شيء فقد رأى غيره، وكل ما التفت إليه العبد سوى الله تعالى تضمن التفاته شيئاً من الشرك الخفي. بل التوحيد الخالص أن لا يرى في كل شيء إلا الله عز وجل».انتهى.[2]

---

[1] فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (1/ 479)

[2] إحياء علوم الدين بتصرف 1\287،288. ومعنى: « التوحيد الخالص أن لا يرى في كل شيء إلا الله عز وجل». فقد أوضحت معناها في الأدب الخامس.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الأدب العاشر

التبرؤ . أو التبري .

وعاشرُ الآداب إخلاص العمل فليس يبغي غيرَه عزّ وجل
فالالتفات مبطلُ الأعمــــالِ مُصيّرُ الأجورِ للـــزوالِ

التبرؤ لغة، أو التبري. يقال: بَرِئَ إذا تخَلَّصَ، وإذا تَنَزَّهَ وتباعَدَ.[1]

والمراد به هنا: أن تتبرأ . أيها القارئ . من حولك، فلا تلتفت لنفسك. إذ لا حول للعبد ولا قوة له، فأنت ضعيف، جاهل، ظالم، لولا أن مَنّ الله عليك ما تحرك لسانك بالقراءة، ولتحرك بالمعصية، فإن معنى لا حول: أي لا تحويل للعبد عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة له على طاعة الله إلا بتوفيق الله،[2] وقيل معنى لا حول: لا حيلة. وقال النووي: « قال العلماء سبب ذلك . أي كونها كنز من كنوز الجنة . أنها كلمة استسلام وتفويض إلى الله تعالى واعتراف بالإذعان له وأنه لا صانع غيره ولا راد لأمره وأن العبد لا يملك شيئا من الأمر».[3]

---

[1] لسان العرب (1/ 33)

[2] فتح الباري لابن حجر (11/ 501500)

[3] شرح النووي على مسلم (17/ 26)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وفي الحديث: « يا عبد الله بن قيس ألا أعلمك كلمة هي من كنوز الجنة لا حول ولا قوة إلا بالله»[1]، وفي حديث آخر: «إذا قال العبد لا حول ولا قوة إلا بالله قال الله أسلم عبدي واستسلم»[2] . قال الحافظ في الفتح: «أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة بسند قوي، وفي رواية له « قال لي يا أبا هريرة ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: تقول لا حول ولا قوة إلا بالله . فيقول الله أسلم عبدي واستسلم «وزاد في رواية له «ولا منجا ولا ملجأ من الله إلا إليه». قوله (من كنوز الجنة) تقدم القول فيه، وحاصله أن المراد أنها من ذخائر الجنة أو محصلات نفائس الجنة، قال النووي: المعنى أن قولها يحصل ثوابا نفيسا يدخر لصاحبه في الجنة . وأخرج أحمد والترمذي وصححه ابن حبان عن أبي أيوب أن النبي صلى الله عليه وسلم . ليلة أسري به . مرّ على إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام فقال: يا محمد مُر أمتك أن يكثروا من غراس الجنة، قال: وما غراس الجنة؟ قال: لا حول ولا قوة إلا بالله». انتهى من الفتح[3].

كذلك يجب عليك أيها القارئ التبرؤ من فعلك وقولك، فلا تلتفت إلى أفعالك، ولا إلى أقوالك. فإن أفسد شيء للعبد أن يرضى عن نفسه، أو أن يظن أنه بقوته وفكره استطاع أن يقوم بطاعة ربه.

---

[1] متفق عليه

[2] رواه أحمد والنسائي والطبراني في الكبير والأوسط وقال الحاكم: هذا حديث صحيح ولا يحفظ له علة، ولم يخرجاه وقد احتج مسلم بيحيى بن أبي سليم.

[3] فتح الباري لابن حجر (11/ 501)

فمعنى التبري إذا: أن تتبرأ من حولك وقوتك والالتفات إلى نفسك بين الرضا والتزكية. فإذا تلوت آيات الوعد والمدح للصالحين، فلا تشهد نفسك عند ذلك. بل تشهد الموقنين والصديقين فيها وتتشوف إلى أن يلحقك الله عز وجل بهم. وإذا تلوت آيات المقت وذم العصاة والمقصرين شهدت على نفسك هناك، وقدّرت أنك المخاطب خوفاً وإشفاقاً.

ولذلك ورد أن عمر رضي الله عنها كان يقول: «اللهم إني أستغفرك لظلمي وكفري»، فقيل له: هذا الظلم فما بال الكفر؟ فتلا قوله عز وجل:(**إن الإنسان لظلوم كفار**) [سورة إبراهيم:34].[1]

وقيل ليوسف بن أسباط[2]: «إذا قرأت القرآن بماذا تدعو؟ فقال: «بماذا أدعو؟ أستغفر الله عز وجل من تقصيري سبعين مرة».[3]

فإذا رأيت نفسك بصورة التقصير، كانت رؤيتك سبب قربك. فإن من شهد البعد في القرب لطف به في الخوف، حتى يسوقه الخوف إلى درجة أخرى في القرب وراءها. ومن شهد القرب في البعد مكر به بالأمن الذي يفضيه إلى درجة أخرى في البعد أسفل مما هو فيه. ومهما كنتَ مشاهداً نفسك بعين الرضا صرت محجوباً بنفسك، فإذا جاوزت حدّ الالتفات إلى نفسك ولم تشاهد إلا الله تعالى في قراءتك كشف لك سر الملكوت.

---

[1] قوت القلوب (1/ 91)

[2] هو يوسف بن أسباط الشيباني الزاهد الواعظ، كان من خيار أهل زمانه مات سنة خمس وتسعين ومائة. رحمه الله.

[3] إحياء علوم الدين (1/ 288)

قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: «وعد ابن ثوبان أخاً له أن يفطر عنده فأبطأ عليه حتى طلع الفجر، فلقيه أخوه من الغد فقال له: وعدتني أنك تفطر عندي فأخلفت! فقال: لولا ميعادي معك ما أخبرتك الذي حبسني عنك. إني لما صليت العتمة قلت: أوتر قبل أن أجيئك، لأني لا آمن ما يحدث من الموت، فلما كنت في الدعاء من الوتر رُفعت إلي روضة خضراء، فيها أنواع الزهر من الجنة، فما زلت أنظر إليها حتى أصبحت!».[1]

قال الغزالي رحمه الله: «وهذه المكاشفات لا تكون إلا بعد التبري من النفس وعدم الالتفات إليها وإلى هواها، ثم تخصص هذه المكاشفات بحسب أحوال المكاشف، فحيث يتلو آيات الرجاء ويغلب على حاله الاستبشار تنكشف له صورة الجنة، فيشاهدها كأنه يراها عياناً، وإن غلب عليه الخوف كوشف بالنار حتى يرى أنواع عذابها. وذلك لأن كلام الله عز وجل يشتمل على السهل اللطيف، والشديد العسوف، والمرجو والمخوف، وذلك بحسب أوصافه، إذ منها الرحمة واللطف والانتقام والبطش. فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات يتقلب في اختلاف الحالات، وبحسب كل حالة منها يستعد للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة ويقاربها؛ إذ يستحيل أن يكون حالة المستمع واحداً، والمسموع مختلفاً. إذ فيه كلام راض، وكلام غضبان، وكلام منعم، وكلام منتقم، وكلام جبار متكبر لا يبالي، وكلام حنان متعطف لا يهمل». انتهى[2].

---

[1] قوت القلوب (1/ 86)

[2] إحياء علوم الدين بتصرف 1\288

قال مقيده لطف لله به: ولا غرابة في بلوغ القارئ حال الترقي، كما وقع لابن ثوبان رحمه الله، حيث صار في حالة يتنزه في رياض الجنة وهو في الأرض! فهذه حالة كانت تعتري بعض الصحابة رضي الله عنهم. وإياك أن تظن أن الرؤية هنا رؤية العين المجردة، وإنما هي رؤية بعين القلب.

منها أن الصحابة لما كانوا قافلين من غزوة ذات الرقاع، سبوا امرأة من المشركين، فنذر زوجها ألا يرجع حتى يهريق دما في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فجاء ليلا، وقد أرصد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين ربيئة ـ طليعة ـ للمسلمين من العدو، وهما: عبّاد بن بشر، وعمار بن ياسر، فرمى عبادا، وهو قائم يصلي بسهم، فنزعه، ورشقه بثلاثة أسهم فلم ينصرف منها حتى سلم، فأيقظ صاحبه فقال: سبحان الله! أفلا أهببتني؟ ـ وفي رواية: أفلا أنبهتنى أول ما رماك! ـ قال: كنت فى سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها! فلما تابع علي الرمي ركعت فآذنتك، وأيم الله، لولا أن أضيع ثغرا أمرني رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بحفظه، لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها!. الحديث[1].

فهذا عباد بن بشر رضي الله عنه كان مستغرقا في سورة الكهف[2]، لم يرد أن يقطعها، ولم يبال بالنبل يرشقه ثلاث مرات، فلا شك أنها حالة من حالات الترقي، غاب فيها عن نفسه!.

---

[1] رواه أحمد وأبو داود والبيهقي في سننه الكبرى والدارقطني في سننه وابن حبان وابن خزيمة في صحيحيهما.

[2] قال الحافظ: «السورة الكهف». فتح الباري (1/ 281)

ومنها ما جاءَ في صحيح مسلم من حديث حنظلة الْأُسَيِّدِيِّ رضي الله عنه أنه قال: لقيني أبو بكر فقال كيف أنت يا حنظلة؟ قال قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله ما تقول! قال قلت: نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرا، قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا. فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما ذاك؟ قلت: يا رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة، وساعة»، ثلاث مرات».[1]

وروى البغوي بسنده عن هشام بن عروة قال: «رأيت عبد الله بن الزبير يُرمى بالمنجنيق عن يمينه وعن يساره لا يلتفت، وكان يشبه أبا بكر».[2]

فالإخلاص ـ عموما ـ هو روح العمل، والروح هو السر المودع في الإنسان، فكما أن جسد الإنسان لا يحيى إلا بوجود الروح فيه، فكذلك أعمال العبد لا

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه والترمذي وابن ماجة وأحمد.

[2] معجم الصحابة للبغوي (3/ 517)

يقبلها الله تعالى إلا بالإخلاص فيها، فإذا انتفى الإخلاص حبط العمل، ورُد على صاحبه.

وهذه هي العلة في وجوب تبرؤ القارئ من قراءته. والحق أن هذا الأدب ـ التبري ـ يعم كل مسلم في كل طاعة يقوم بها، أو معصية يتركها، لأن له علاقة بالإخلاص.

تعريف الإخلاص

تنوعت عبارات العلماء في معنى الإخلاص، والقصدُ واحد.

ذكر الثعلبي في تفسيره بعض أقوال السلف في معنى الإخلاص: منهم قول سعيد بن جبير: «الإخلاص أن يُخلص العبد دينه وعمله لله، ولا يشرك به في دينه، ولا يرائي بعمله أحداً».

وقال محمّد بن عبد ربّه: سمعت الفضيل يقول: «ترك العمل من أجل النّاس رياءً، والعمل من أجل النّاس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما» .

وقال يحي بن معاذ: «الإخلاص تميّز العمل من العيوب، كتميّز اللبن من بين الفرث والدم».

وقال أبو الحسن البوشجي: «هو ما لا يكتبه الملكان، ولا يفسده الشيطان، ولا يطّلع عليه الإنسان».

وقال رؤيم: «هو ارتفاع رؤيتك من الظّل» .

وقيل: ما لا يشوبه الآفات ولا تتبعه رخص التأويلات .

وقيل: ما استتر من الخلائق، واستصفى من العلائق .

وقال حذيفة: هو أن تستوي أفعال العبد في الظاهر والباطن.

وقيل: أن تكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك .

وعن أحمد بن أبي الجماري قال: سمعت أبا سليمان يقول: « للمُرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في النّاس، ويزيد في العمل إذا أُثني عليه». انتهى من الكشف.[1]

ويروى أن الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام: «ما الإخلاص لله؟ فقال: الذي يعمل العمل لا يحب أن يحمده عليه أحد من الناس».

وقال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله في حكمه: «الأعمال صور قائمة، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها». فالإخلاص إفراد القلب لعبادة الرب، وسره لُبه، وهو الصدق المعبر عنه بالتبري من الحول والقوة، إذ لا يتم إلا به.

قال ابن عجيبة رحمه الله[2]: «الأعمال كلها أشباح وأجساد، وأرواحها وجود الإخلاص فيها، فكما لا قيام للأشباح إلا بالأرواح، وإلا كانت ميتة ساقطة. كذلك لا قيام للأعمال البدنية والقلبية إلا بوجود الإخلاص فيها، وإلا كانت صوراً قائمة وأشباحاً خاوية لا عبرة بها. قال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ**﴾ [البينة: 5]. وقال تعالى: ﴿**أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**﴾ [الزمر: 3]، وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تعالى يقول: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[3]. وقال صلى الله عليه وسلم: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر: الرياء، يقول

---

[1] الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي(2/ 7.6)

[2] إيقاظ الهمم شرح متن الحكم 1\18

[3] رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وكذلك ابن ماجه والطبراني.

الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟». [1]

والآيات والأحاديث الآمرة بالإخلاص كثيرة، منها قوله تعالى:(**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**) [الأنعام: 162، 163]. وقوله تعالى:(**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**) [الملك: 2]. قال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه فقال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا: لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا. والخالص: أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة ثم قرأ قوله تعالى: (**فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**) [الكهف: 110] [2].

وقال تعالى:(**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا**) [الفرقان: 23]. وهي الأعمال التي كانت على غير السنة، أو أريد بها غير وجه الله تعالى. وفي الحديث الصحيح من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين. فإن دعوتهم تحيط من ورائهم» [3]. أي

---

[1] صحيح الجامع الصغير (6/ 382) و «السلسلة الصحيحة» 2 / 671

[2] قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ابن تيمية(1/ 293)

[3] رواه ابن ماجه في سننه، صحيح، انظر سلسلة الاحاديث الصحيحة « رقم 404، و» صحيح الجامع الصغير « رقم 6766، و»مشكاة المصابيح « 228) الألباني.

لا يبقى فيه غل ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة بل تنفي عنه غله وتنقيه منه وتخرجه عنه..

وسئل رسول الله عن الرجل يقاتل رياء ويقاتل شجاعة ويقاتل حمية: أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». متفق عليه.

وأخبر عن أول ثلاثة تسعر بهم النار: قارئ القرآن، والمجاهد، والمتصدق بماله، الذين فعلوا ذلك ليقال: فلان قارئ، فلان شجاع، فلان متصدق، ولم تكن أعمالهم خالصة لله.

وفي الحديث الصحيح الإلهى يقول الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك به»[1].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

فالالتفات إلى الطاعة . ومنها القراءة . يحبط أجرها. وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة فقال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد «. والالتفات في

---

[1] صحيح رواه ابن ماجه في « الزهد « من حديث أبي هريرة.

الصلاة على ظاهره، قال الحافظ في الفتح: «وسبب كراهة الالتفات يحتمل أن يكون لنقص الخشوع، أو لترك استقبال القبلة ببعض البدن».[1]

والدليل على حبوط العمل عند الالتفات إليه، ما جاء في التنزيل: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ**﴾ [محمد: 28] ، وقوله في السورة نفسها: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ**﴾ [محمد: 32] . قال العلامة ابن عاشور رحمه الله: «وفعل: حبط من باب سمع، ويتعدى بالهمزة، قال اللغويون: أصله من الحبَط بفتح الباء، وهو انتفاخ في بطون الإبل من كثرة الأكل فتموت من ذلك، فإطلاقه على إبطال الأعمال تمثيل، لأن الإبل تأكل الخضر شهوة للشبع فيئول عليها بالموت، فشبه حال من عمل الأعمال الصالحة لنفعها في الآخرة، فلم يجد لها أثرا بالماشية التي أكلت حتى أصابها الحبط، ولذلك لم تقيد الأعمال بالصالحات لظهور ذلك التمثيل.

وحبط الأعمال: زوال آثارها المجعولة مرتبة عليها شرعا، فيشمل آثارها في الدنيا والثواب في الآخرة وهو سر قوله: ﴿**وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [البقرة: 217]»[2]

---

[1] فتح الباري لابن حجر (2/ 234)

[2] التحرير والتنوير (2/ 332)

فاحرص أيها القارئ على تصفية قراءتك من كل شوب يشوبها، كأن تطلب ـ مثلا ـ التزين في قلوب الخلق، أو طلب مدحهم، أو الهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم لك، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم لك، أو قضائهم حوائجك، أو طلب محبتهم لك، أو غير ذلك من العلل والشوائب القادحة في إرادة ما سوى الله بعملك كائنا من كان.

واعلم ـ وفقني الله وإياك ـ أنه لا يمكنك التخلص منها ـ أي الشوائب القادحة ـ إلا بأن تعلم أن الصوت الذي أكرمك الله تعالى به، والأداء المحكم الذي خرج من حنجرتك ولسانك: إنما هو من الله تعالى وبه، وليس منك ولا بك، كما قال تعالى: ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [النور: 21]، ويقول أهل الجنة في الجنة: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ**﴾ [الأعراف: 43]. وقال تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿**وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا**﴾ [الإسراء: 74]، وقال تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ [الحجرات: 7]. فكل خير على الإطلاق ـ بما فيه حسن الترتيل ـ فإنما هو مجرد فضل الله ومنته وإحسانه ونعمته، وهو المحمود عليه، فرؤية العبد لأعماله ـ في الحقيقة ـ كرؤيته لصفاته الخَلقية: من سمعه وبصره وإدراكه وقوته، بل من صحته وسلامة أعضائه، ونحو ذلك. فالكل مجرد عطاء الله تعالى ونعمته وفضله.

فالذي يخلصك أيها القارئ من حظوظ نفسك هو: معرفة ربك ومعرفة نفسك. والذي يخلصك من طلب العوض على قراءتك: علمك بأنك عبد محض،

والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضا ولا أجرة، إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته، فما يناله من سيده من الأجر والثواب، تفضل منه وإحسان إليه وإنعام عليه، لا معاوضة. إذ الأجرة إنما يستحقها الحر أو عبد الغير، فأما عبد نفسه فلا. والذي يخلصك من رضاك بعملك وسكونك إليه، أمران:

أحدهما: مطالعة عيوبك وآفاتك وتقصيرك فيه، وما فيك من حظ النفس ونصيب الشيطان. فقَل عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب وإن قل، وللنفس فيه حظ. وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن التفات الرجل في صلاته فقال: «هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد». فإذا كان هذا التفات طرفه أو لحظه فكيف التفات قلبه إلى ما سوى الله؟ هذا أعظم نصيب الشيطان من العبودية.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: « لا يجعل أحدكم للشيطان شيئا من صلاته، يرى أن حقا عليه أن لا ينصرف إلا عن يمينه، لقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا ينصرف عن يساره»[1]. فجعل هذا القدر اليسير النزر حظا ونصيبا للشيطان من صلاة العبد، فما الظن بما فوقه، وما الظن بمن يتغنى بالقرآن ليلفت مسامع المصلين خلفه؟

وأما حظ النفس من العمل، فلا يعرفه إلا أهل البصائر الصادقون.

ثانيها: أن تعلم أنك أضعف وأعجز وأقل من أن توفي حق القراءة كما ينبغي، فكيف ترضى بها لربك؟! فالعارف بالله لا يرضى بشيء من عمله لربه . بما في

---

[1] متفق عليه واللفظ للبخاري (باب الانفتال والانصراف عن اليمين)

ذلك ترتيله للقرآن . ولا يرضى عن نفسه لله طرفة عين، ويستحيي من مقابلة الله بعمله. فسوء ظنك بنفسك وعملك وبغضك لها وكراهتك لأنفاسك وصعودها إلى الله، يحول بينك وبين الرضا بعملك، والرضا عن نفسك، وذلك عين الإخلاص، والنجاة من حبوط العمل.

ولذلك قيل: آفة العبد رضاه عن نفسه، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها، فقد أهلكها، ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور[1].

وحكى الإمام ابن القيم رحمه الله عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنه كان كثيرا ما يقول: « ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا في شيء». وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكدي وابن المكدي   وهكذا كان أبي وجـدي.

والمكَدّي هو العبد والخادم، ويقصد رحمه الله أنه هو وأبوه وجده عبيد لله خدّام لدينه.

وكان إذا أثنى عليه في وجهه يقول: «والله، إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلاما جيدا»[2].

---

[1] كلام منقول ومستفاد من مدارج السالكين بتصرف 2\115.114

[2] مدارج السالكين (1/ 520)

ولقد اشتد خوف السلف من الرياء أشد تخوف، فقد روى ابن أبي الدنيا عن الربيع، قال: وعظ الحسن يوما فانتحب رجل، فقال الحسن: « ليسألنك الله يوم القيامة ما أردت بهذا؟».[1]

وروى أيضا عن معمر قال: «بكى رجل إلى جنب الحسن فقال: قد كان أحدهم يبكي إلى جنب صاحبه فما يعلم به».[2]

وقال محمد بن واسع: « لقد أدركت رجالا كان الرجل يكون رأسه ورأس امرأته على وساد واحد، قد بل ما تحت خده من دموعه، لا تشعر به امرأته، والله لقد أدركت رجالا كان أحدهم يقوم في الصف فتسيل دموعه على خده لا يشعر الذي إلى جنبه»[3].

قال مقيده: كيف لو رأى محمد بن واسع حال بعض الأئمة والقراء يتصنع أحدهم في البكاء ليكتظ المسجد ويصرف وجوه الناس إليه؟!

فاللهم بغِّضْ إلينا حبَّ الظهور، واجعلنا من عبادك الأتقياء الأخفياء الأنقياء[4]. البسّامين بالنهار، البكائين بالليل[5].

---

[1] الإخلاص والنية لابن أبي الدنيا (ص: 55)

[2] المصدر نفسه (ص: 60)

[3] المصدر نفسه (ص: 61)

[4] وقد صح في الحديث: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي». أخرجه مسلم حديث رقم 2965 كتاب الزهد والرقائق) ، ورواه أحمد وأبو نعيم في الحلية ، والبغوي في»شرح السنة».

[5] عن معاوية بن قرة قال: «من يدلني على رجل بكاء بالليل بسام بالنهار» (الزهد لأحمد بن حنبل (ص: 234). قال الإمام الذهبي: «أعلى المقامات من كان بكّاءً بالليل بسّاما بالنهار». (سير أعلام النبلاء (8/ 303)

وبهذا القدر، نكون قد انتهينا من اختصار كتابنا: «التبيان في شرح منظومة الآداب الباطنية لقارئ القرآن». أسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعا للتأدب بها، والعمل بها.

فاللهم يا رب أصلح لنا ما أخفيناه وأسررناه وأضمرناه، ولم يطلع عليه سواك، كما أصلحت لنا ظاهرنا وعلانيتنا أمام الناس. أصلح لنا ما بطن، كما أصلحت لنا ما علن.

يا ربنا أصلح لنا ما قد بطن … وما بدا وما خَفى وما عَلن

ربِّ أعوذ بك من قول بلا عمل، ومن عمل في السر يخالف العلن. وأعوذ بك أن أذكِّرَ الناس بالخير وأنسى نفسي.

رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، وانصرني على من بغى علي، رب اجعلني لك شكَّاراً، لك ذكاراً، لك رهاباً، لك مخبتاً، إليك أواهاً منيباً، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة قلبي.

هذا، وما كان في هذا الكتيب من توفيق وسداد فهو من الله تعالى، وما كان فيه من نقص أو زلل أو خطإ فمن نفسي وغفلتي وذنوبي والشيطان، والله ورسوله من كل ذلك بريئان.

وأرجو منه تعالى لهذا الاختصار الإخلاص والقبول، وأن ينفع به القراء . أئمة المساجد على الخصوص .، وأن يتجاوز عني ما كان فيه من زيغ أو سبق قلم، إنه كان حليما غفورا.

تمت بهذا جملة الآداب الباطنية بُغيَ الثواب
ختمتها والفضل لله الأحد مُجري العطايا ليس تُحصى أو تُعد
مصليا على النبي المختار محمد وآله الأبرار

أبياتـُها «كـيٌّ» بِعَدِّ الجُملِ تأريخها «بَلغْتَ» فاقرأْ وادعُ لي[1]

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك.

وكتبه المعترف بتقصيره

محمد بن أحمد رفيق

[1] أي عدد أبيات المنظومة تساوي مجموع رمز حروف كلمة «كيٌّ» وفق رموز الحروف الأبجدية المعروفة؛ فالكاف: 20. والياء: 10= مجموعها 30 بيتا. والكيُّ معروف: إحراق الجلد بحديدة ونحوها. وأما تاريخها فمجموع في كلمة: «بلغت». فالباء: 2. واللام: 30. والغين: 1000. والتاء: 400 = مجموعها 1432 هـ، وهو تاريخ نظمها والانتهاء من تسويدها. والمراد بالبلوغ هنا: الاحتلام.

مراجع الكتاب

القرآن العظيم

أ

إحياء علوم الدين / أبو حامد الغزالي

أخلاق أهل القرآن / أبو بكر الآجري

أصناف المغرورين / أبو حامد الغزالي

إغاثة اللهفان / ابن قيم الجوزية

إعلام الموقعين عن رب العالمين / الإمام ابن القيم

إعراب القرآن وبيانه / محيي الدين درويش

إرواء الغليل / الشيخ ناصر الدين الألباني

الإتقان في علوم القرآن / الإمام السيوطي

الإبانة الكبرى / لابن بطة

ب

بدع القراء القديمة والمعاصرة / الشيخ بكر أبي زيد

البيان والتحصيل / لأبي الوليد ابن رشد القرطبي

بيان زغل العلم والطلب / للحافظ الذهبي

البرهان في علوم القرآن / الإمام الزركشي

البداية والنهاية / الحافظ ابن كثير

بستان العارفين / للإمام النووي.

ت

التغني بالقرآن لمؤلفه / لبيب السعيد

التحرير والتنوير / العلامة ابن عاشور

تحريم آلات الطرب / الشيخ الألباني

التاريخ / لابن عساكر

تاريخ الإسلام / الإمام شمس الدين الذهبي

تفسير القرآن العظيم / الحافظ ابن كثير

تفسير فتح القدير / العلامة الشوكاني

التبيان في آداب حملة القرآن / الإمام النووي

التبصرة / الإمام ابن الجوزي

تاج العروس / الزبيدي

تلبيس إبليس / العلامة ابن القيم

التسهيل لعلوم التنزيل / الإمام ابن جزي

تهذيب اللغة / الأزهري

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تاريخ ابن خلدون

تنبيه الغافلين / للسمرقندي

ج

جامع بيان العلم وفضله / الحافظ ابن عبد البر

الجامع الصغير / الشيخ الألباني

ص

صحيح الجامع الصغير/ الألباني

صحيح النسائي / الألباني

صفة الصفوة / ابن الجوزي

صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم / للشيخ الألباني

صحيح ابن حبان

صحيح الكلم الطيب / الألباني

الصحاح / لأبي نصر الفارابي

ض

ضعيف الجامع / الشيخ الألباني

م

المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات/ أبو عبد الله محمد الفاسي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المعجم الكبير للطبراني

مقدمة ابن خلدون

مجموع الفتاوى / شيخ الإسلام ابن تيمية

مدارج السالكين / ابن القيم الجوزية

مقدمة في علوم الحديث / ابن الصلاح

مفتاح العلوم للعلامة / أبو يعقوب يوسف السكاكي.

مفتاح دار السعادة / ابن القيم الجوزية

مواعظ ابن الجوزي

مشكاة المصابيح/ التبريوي

مكامن الدرر في محاور السور / محمد بن أحمد رفيق

معجم الصحابة / للبغوي

مسند الإمام أحمد

مشكل الآثار الطحاوي

منح الجليل شرح مختصر خليل الفقه المالكي/ أبو عبد الله عليش المالكي

مغني المحتاج / محمد الشِّرْبِينِيُّ الخطيب

معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم/ للسيوطي

معجم ابن المقرئ

د

الدعوة إلى الله / ابن عثيمين

دولة المقرئين / لمحمد السعدني

ش

شرح النووي على مسلم

شعب الإيمان للبيهقي

شرح صحيح البخارى / لابن بطال

شرح العقيدة الواسطية/ الشيخ محمد بن خليل حسن هرّاس

ح

حلية الأولياء / ابن أبي نعيم

ل

لسان العرب / ابن منظور

غ

غريب القرآن / للسجستاني

ر

ربيع الأبرار / الزمخشري

روضة الناظر وجنة المناظر / لابن قدامة المقدسي

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ز

الزهد للإمام أحمد

زاد المعاد / الإمام ابن القيم

ق

قيام الليل / ابن نصر المروزي

قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة/ ابن تيمية

قيام رمضان / الشيخ الألباني

س

السنن الكبرى البيهقي

سنن الدارقطني

سير أعلام النبلاء / الذهبي

السلسلة الصحيحة / الشيخ الألباني

الاستقامة / شيخ الإسلام ابن تيمية

ف

فى ظلال القرآن / سيد قطب

فيض القدير / الإمام الشوكاني

ن

شبكة الألوكة - قسم الكتب

هذا الكتاب منشور في

شبكة الألوكة

www.alukah.net